زدني علماً

علوم إجتماعية

جان ميشال برتيلو

بناء علم الاجتماع

عويدات للنشر والطباعة

بناء علم الإجتماع

جان ميشال برتيلو

بناء علم الاجتماع

تعريب

جورجيت الحداد

عويدات للنشر والطباعة

بيروت - لبنان

ويشمل ، كمرحلة ثانية ، الكتب التالية :

1 ــ إشارات ، رموز وأساطير/ لوك بنوا
2 ــ اضطرابات اللغة/ ديديه بورو
3 ــ فلسفة الفن/ جان لاكوست
4 ــ تاريخ الشعب العبري/ أندريه لومير
5 ــ علم النفس المدرسي/ هوغيت كاغلار
6 ــ النظريات التربوية الحديثة/ جان بول رزڤبر
7 ــ المراهقة والإكتئاب/ هنري شابرول
8 ــ نمو الطفل/ ليليان موري
9 ــ الإجهاد ــ أسبابه وعلاجه/ جان بنجمان ستورا
10ــ بناء علم الاجتماع/ جان ميشال برتيلو
11ــ مهنة المؤرخ/ غي تويلييه وجان تولار
12ــ فلسفة القيم/ جان بول رزڤبر
13 ــ التربية المقارنة/ هانك فان دايل
14 ــ علم النفس الجديد/ أليكس موكيالي
15 ــ تاريخ جهنم/ جورج مينوا
16 ــ الفكر الأخلاقي المعاصر/ جاكلين روسّ

الطبعة الأولى 1999

مقدمة المترجم

تختصر صفحات هذا الكتاب مسار علم قديم في أهدافه حديث في علميته هو علم الاجتماع أو «السوسيولوجيا».

لقد تركز هذا العلم في نهاية القرن التاسع عشر وأهم ما سجله هذا القرن هو ظهور التحقيق الاجتماعي والتجميعات الإحصائية التي تعتبر الشكل الأول للمعرفة السوسيولوجيّة، وكانت هذه التحقيقات تهدف إلى المعرفة في سبيل التدخل (أي من أجل إيجاد الحلول للمشاكل الاجتماعيّة)، أو سبيل الالتزام (الالتزام بالحركة العمالية والنضال السياسي)، فكان لماركس وتوكفيل وكونت دورهم في ذلك دون أن يمنع ذلك من تحول علم الاجتماع إلى علم حقيقي.

ومما لا شك فيه أن بناء هذا العلم الذي لا يمكن عزله إطلاقاً عن التطور الاجتماعي الذي عرفته البلدان الأوروبيّة بنوع خاص لهو مخاض عسير تصارعت فيه النظريات الفلسفيّة والتيارات الفكريّة والإيديولوجيّات وكان لكل منها انعكاسه على طريقة بناء العلم من حيث تحديد مقاربته أو «برنامجه» كما يسميه الكاتب سواء من حيث الموضوع أو من حيث الوسائل والتقنيات. فسيطرت مثلاً في القرن المنصرم النظرة العضوية الداروينيّة على التفسير الاجتماعي (بتأثير سپنسر)، كما سيطر كذلك المنطق الوظيفي التطوري اللذان استطاع علم الاجتماع تجاوزهما فيما بعد.

كما تأثر بناء العلم بالخصوصيات القومية فنشأت مدارس في علم الاجتماع الحديث تلخصت بثلاث: المدرسة الفرنسية والمدرسة الألمانية والمدرسة الأميركيّة. فوُضعت مع دوركايم أسس التفسير السببي ومع سيميل وڤيبر وضعت أسس علم اجتماع التفهم، وفي حين كانت المدرسة الفرنسية تستند إلى العقلانيّة الاختباريّة والطبيعانيّة استندت الألمانيّة إلى المعنى والفعل، أما المدرسة الأميركيّة التي تميّزت بالتجريبيّة فقد أدخلت تطوراً كبيراً على مستوى الطرق وأنماط المقاربة من حيث وسائل جمع المعطيات الاجتماعية واستخدام الطرق الرياضيّة والإحصائيّة

في تحليل هذه المعطيات.

أما مشكلة الانقطاع بين التفكير النظري والبحث التجريبي فقد رافقت طويلاً تاريخ علم الاجتماع وتوقف عليها الكثيرون أمثال ميرتون وسوروكين، إلاّ أن هذه الإشكاليّة تمّ تجاوزها بحيث تمّ بناء موضوع العلم نظرياً واختبارياً في نفسه الوقت في الكتب التأسيسيّة، لأميل دوركايم وماكس ڤيبر وتوماس زنانيكي: «قواعد المنهج في علم الاجتماع» للأول، و«أخلاق الرأسماليّة وروح البروتستانتيّة» للثاني، و«المقدمة الطرائقيّة للفلاح البولوني» للثالث.

كما تأكّدت مع بلوغ هذا العلم مرحلة النضج الوحدة الجدليّة بين الوضعانيّة والذاتيّة.

يتميز إذن هذا الكتاب بأنه يقدم بطريقة واضحة وبسيطة تاريخ بناء علم الاجتماع، ليس كعرض لأفكار المؤسسين وهو منهج أصبح قديماً، أو كتاريخ مفاهيم وتصورات لمقاربة الموضوع الاجتماعي، معزولة عن المرجع البشري أو المكاني، بل يمزج المؤلف في جدلية فريدة وجديدة بين الأسلوبين ليقدم بصورة شبه كاملة استعراضاً لهذا العلم في العصر الحديث متوقفاً على المحطات الكبرى والصغرى التي تشكل إلى حدّ كبير التاريخ الاجتماعي الذي على أساسه بنيت النظريات والمواقف الخاصة به، وذلك من خلال التيارات الفكريّة والفلسفيّة العامة أو من خلال علماء اجتماع ومفكرين محددين العلم نظرياً وعملياً. ومن هنا يمكن القول إنه بقدر ما يتوجه هذا الكتاب إلى الطلاب والباحثين والدارسين للعلوم الاجتماعيّة يتوجه أيضاً إلى كل المهتمين بالفكر والثقافة...

ولا يسعنا أخيراً إلاّ أن نتمنى أن تكون الإشارة السريعة في هذا الكتاب إلى تيارات علم الاجتماع ووجود علماء اجتماع في دول العالم الثالث حافزاً لدراسة مشابهة شاملة حول مسار هذا العلم في هذه الدول تطلعنا على القضايا الكبرى التي طرحت نفسها عليه وشكلت مقاربتها خطوة في طريق تطور البحث العلمي والفكر الموضوعي في هذه البلدان وعلى الأخص البلدان العربيّة.

جورجيت الحداد

مدخـــل

كل مجال علمي يبنى تباعاً. فتاريخه ليس مجرد تطور أفكار ونظريات؛ فهو يتطلب تقنيات وطرق بحث وأشكال بناء لموضوعه، وأماكن تعلّم ونقلاً وممارسة، كما يتطلب أفراداً متشاركين في شبكات عمل وتبادل وتقييم. إن هدف هذا المؤلف هو عرض تاريخ معقول لعلم الاجتماع الحديث ونمط بنائه. مشروع من هذا النوع لا يتحقق من تلقاء ذاته. فإذا اتفق على اعتبار أن «علم الاجتماع الحديث» مهمته المعرفة العلمية للاجتماع، يصبح التعريف نفسه الذي نقدمه ذا إشكاليّة: ما هو الاجتماع؟ بماذا تتميز المعرفة العلمية له عن غيرها من المعرفة؟

هذه الأسئلة ليست مدرسيّة ولا بلاغيّة. إذ إن تعريفات الاجتماع متنوعة: فيمكن النظر إليه على أنه مجموعة قواعد وقيود تفرض على الأفراد في مجتمع معين حيث من المهم معرفة أصولها ونتائجها. ولكن يمكن أيضاً اعتباره الدلالة لدى الغير لما تتضمنه تصرفاتنا المختلفة. فإذا تراجعت عند الدخول إلى قاعة ما لأسمح بالمرور لمفتش حكومي فإنني بذلك أتقيد بقانون قائم من العلاقات التراتبيّة داخل منظمة معينة. وإذا توقعت أنني سأخرج مجدداً، ووضعت محفظتي على طاولة ما فإنني بهذه الحركة أوجه لكل شخص موجود رسالة بديهيّة بامتلاكي المؤقت لهذا المكان دون أن يشرّع لذلك أي قانون ودون أن تسمح به أيّة قاعدة تنظيميّة.

فالاجتماع لا يشكل إذن موضوعاً مقرراً سلفاً ولا يكفي مقاربته بوعي وجدية كي ننتج معرفته. إن تعريفه مرتبط بأشكال التفكير التي حاول بواسطتها البشر التعرف إلى وجودهم المشترك: فالأساطير والديانات والفلسفات وشرائع الأخلاق تحتوي كلها على عرض وتنظير معينين عن الاجتماع. لكن هذه تهدف على الأغلب إلى تشريع أو معارضة نظام اجتماعي قائم أكثر مما تهدف إلى وضع معرفته.

يولد علم الاجتماع عندما يصيغ بحركة واحدة موضوعه ونمط المعرفة الذي يناسبه ويضع في الاختبار التجريبي صوابية اختياراته. فيستبدل المقاربة المشوشة والتي غالباً ما تكون إيديولوجيّة بعمل معقول ومنهجي من التحليل والمعالجة. وهذا ما يمكن أن نطلق عليه تعبير «برنامج بحث».

إن برنامجاً كهذا لا يولد من العدم. فهو يفترض كي ينشأ ويتطور عدداً من الشروط التي بقدر ما هي فكريّة وأخلاقيّة هي ماديّة وتقنيّة ومؤسسيّة؛ إن هذه الشروط تحققت على مدى القرن التاسع عشر وفسرت ظهور علم الاجتماع العلمي الحديث في العقد الأخير منه. ولكن هذا الظهور سيجري في ظلّ التعددية: فلن يظهر برنامج واحد بل برنامجان في آن واحد. وسيشكلان الدعامات الأولى التي سيقوم عليها البناء اللاحق ويتشعّب. وهكذا منذ البداية إن علم الاجتماع العلمي الحديث هو في الوقت نفسه واحد ومتعدّد، ولذا ندعو القارىء إلى التعرف إلى هذا المسار المعقّد في بناء هذا العلم في عمقه المجتمعي.

الفصل الأول

في مصادر معرفة غير مؤكدة

لقد أخذ علم الاجتماع الحديث مكانته في نهاية القرن التاسع عشر. وتميّز عندئذٍ بمجموعة من الخصائص النظريّة والمنهجيّة والمؤسسيّة التي أضفت عليه الصفة العلميّة وميّزته حكماً إن لم يكن في الواقع دائماً، عن الفلسفة الاجتماعيّة وكتابة المحاولة الأدبيّة. إن هذه المكانة نتجت عن عمل تاريخي بطيء تحقق في معظمه على مدى هذا القرن. ولا شك أن كبار مفكري فلسفة الأنوار كهوبس Hobbes ولوك Locke ومونتسكيو Montesquieu وروسو Rousseau سيساهمون في تغذية التفكير السوسيولوجي. وأكثر من ذلك، فإن علم الاجتماع الحديث قد يكون تجذر في السمات الجديدة للحضارة التي بدأت ترتسم في نهاية القرن الثامن عشر.

انطبعت بدايات القرن التاسع عشر بوطأة الثورتين اللتين انتهى بهما القرن السابق: الثورة الصناعيّة والثورة الفرنسيّة. إنها أحداث من طبيعة ومستوى مختلفين قاسمهما المشترك قد يكون الشعور بالقطع الذي ولداه: فتكوين مناطق صناعية جديدة وتطور الآلات الحديثة وانقلاب العلاقات بين المدن والأرياف وبروز بروليتاريا تتكدس في ضواحي المدن كل ذلك خلق مشاكل جديدة.

فلم يعد الأمر يتعلق بأوضاع يستطيع أن يدرجها الفكر التقليدي ضمن النظام الطبيعي للأشياء بل بمشاكل اجتماعيّة بالمعنى الحديث للكلمة: فالتكدس والاختلاط، والانحراف، والبغاء، والسكر، والمرضية المبكرة ظهرت مرتبطة بتنظيم اجتماعي معين وتتطلب من هنا معالجة جديدة من قبل المجتمع لنفسه. ولكن هذه النتائج للتطور الصناعي التي لن يتوقف القرن التاسع عشر عن استجوابها يمكن أن تظهر على السواء كنتيجة للثورة الفرنسيّة، ولتهديم البنى والسلطات التي تضمن التوازن الاجتماعي التقليدي.

إن الشعور بالقطع المتولد على هذا النحو يتجلّى في فكر القرن التاسع عشر بتعارضات مفهومية على شكل تفرعات ثنائيّة، عاملة على مستويات مختلفة على التغيرات في موضوعة القديم والجديد فسيشكل البعض منها نواة «الأفكار الأوَّلية»[1] المميزة لعلم الاجتماع الحديث.

وأكثر من ذلك أيضاً قد يولّد هذا الشعور هماً جديداً من المعرفة. ومن التسرع ولا شك القوم إن «ثمة طرقاً جديدة لمشاكل جديدة». ومع ذلك فقد شهد القرن التاسع عشر ولادة التحقيق الاجتماعي. وقد انفصل هذا عن مذكرات السفر التي كانت تستطيع القيام بها النفوس المتنورة في العصور السابقة. واتجه لاستبدال التفصيل التصويري أو الاستطراد الفلسفي بالوصف الدقيق والإحصاء المفصّل.

ولكن مراكمة الوقائع لا يكفي لإعطائها معنى. فهمُ المعرفة الذي يبديه التحقيق الاجتماعي هو أكثر غموضاً بقدر ما تتعدد صلاته مع السلطة. ماذا يعني إذن علم المجتمع؟ ألا يجب أن يكون على شكل علوم الطبيعة نفسها؟ ولكن هل يمكن أن نكتفي بوصف الواقع عندما يتخذ هذا الواقع الوجه المنتفض للمأساة البشرية؟ إن المجتمع ابن التاريخ والبشر هم صانعوه؛ أليست إرادة التفكير به هي إرادة التقاط معناه وتحديات صيرورته؟

سيتناول الفكر الاجتماعي للقرن التاسع عشر بصورة غير مباشرة هذه الأسئلة التي ستشكل أحد الأبعاد الإبستمولوجيّة الأساسية لعلم الاجتماع الحديث.

عبر الخطوات الأولى للمعرفة الخرقاء في ربط الأفكار بالوقائع المستعدة غالباً للانزلاق في النقض والصراع أو للاكتفاء ببناءات أكثر بلاغة مما هي نظرية تمهدت على هذا النحو، على مدى القرن، الأرضية التي يقوم عليها علم الاجتماع.

أولاً ـ تحقيق اجتماعي ومجموعات إحصائية

1 ـ شهد القرن التاسع عشر بشكل تدريجي وتلمّسي، ولكن لا رجوع عنه،

(1) R. A. Nisbet, La tradition sociologique, 1966, trad. Paris, PUF, 1984.

إقامة جهاز قوي للمراقبة الاجتماعية لم يبق على القرن العشرين سوى عقلنته وتنظيمه بشكل منهجي. قد تكون تلك المرة الأولى التي جرى فيها التقاء لم يسبق له مثيل وخصب بين مصالح الدولة في الرقابة الاجتماعية والاهتمامات الإنسانية والصحية لمساعدة السكان الأكثر حرماناً والهم العلمي في تطبيق طرق رياضية مجربة في علوم الطبيعة على الوقائع الإنسانيّة. إلاّ أنه ليس في هذا الالتقاء شيء من المنهجيّة، بل بالأحرى انطباع عن وجود غليان ووفرة هائلين تعبئان أعداداً كثيرة من الفاعلين. فإذا كانت الإدارات الكبرى التي انتقلت تدريجياً من التحقيق الدقيق إلى الإحصاء المنهجي قد استعانت بموظفيها فإن الجمعيات العلمية ومكاتب الرعاية ومختلف المبادرات الخاصة التي ترأست انطلاقة الأبحاث اعتمدت أساساً على كل الذين تضعهم مراكزهم في موقع من الملاحظة المتميزة: أطباء، كهنة، قضاة، ومعلمون. . . . ففي غياب جسم متخصص من المراقبين الاجتماعيين مثل الذي تأسس في القرن العشرين فالكل يستعين بهؤلاء الوسطاء: إن شاپتال Chaptal بتعبئته للمحافظين من أجل تحقيق عام 1800 لم يتردد في إعطائهم التعليمات التالية:

«لا تتوانوا عن الاستعانة برجال محافظتكم الأكثر استنارة، بأولئك الذي، بفضل موقعهم، هم الأكثر تمكناً من الرؤية والذين بتعلقهم بالوطن هم الأكثر استعداداً لإيصال نتيجة ملاحظاتهم»[1].

إن جون سِنْكلير John Sinclair هو الرائد بلا منازع لهذه الحركة. فقد نشر بين 1791 و 1799 عشرين مجلداً عن الوضع الإحصائي لإيكوسيا Ecosse فقد قرر هذا المهندس الزراعي المولع بالإصلاح إرسال استمارة من 160 سؤالاً لكل كهنة رعايا إيكوسيا المئة والستين حول الوضع الجيولوجي والجغرافي والتاريخي والديموغرافي لدوائرهم. وكان ذلك بداية لمراسلات طويلة بلغت أكثر من عشرين ألف رسالة[2]. أما ڤيللرميه Villermé الذي لم يتوانَ عن التجوال في جميع أنحاء

---

(1) Cité in M. N. Bourguet, Race et histoire, L'image officielle de la France en 1800, revue Annales, vol. 31, n°4, 1976 p. 802 - 823.

(2) انظر حول هذه النقطة R. E. Kent, A history of British empirical sociology, Aldershot, Gower publishing Company Limited, 1981.

فرنسا، من أجل تحقيقه عن حالة عمال فبارك النسيج، فقد أشار أيضاً إلى الدور الحاسم لهؤلاء الوسطاء:

«لقد تسارع القضاة والأطباء والصناع والعمال البسطاء في كل مكان لدعمي. واستطعت بمساعدتهم أن أرى وأسمع وأعرف كل شيء. وزودوني المعلومات وكأنهم يتنافسون»[1].

فيما يتعدى هذا التنوع في العاملين المطلوب منهم المساعدة والمخاطر التي يحويها هذا التنوع من حيث تشتت وانحراف المعلومات المحصلة فقد أنشئت مؤسسات حقيقية لجمع المعلومات: إذا كانت التعدادات الأولى الكبرى للسكان قد ظهرت في القرن الثامن عشر، خاصة في البلدان السكندينافيّة التي كانت متقدمة في هذا المجال ـ فإن أولى إجراءات الجمع والنشر الدوريّة قد تأسّست في بداية القرن التاسع عشر. تناولت هذه الإجراءات في البداية المعطيات الديموغرافيّة الشاملة، زيجات، ولادات، وفيات. . ثم طاولت مختلف قطاعات الحياة الاجتماعيّة ونشأ، بناءً على رغبة التنظيمات الحكومية والبنيات الإداريّة، الأحصاء الصناعي والإحصاء الزراعي، وإحصاء الجريمة والإحصاء المدرسي. . .

لقد تطورت، إلى جانب هذه المشروعات الرسمية أو على هامشها، جمعيات علمية ذات طابع جديد تجمع ما بين مباشرين وأطباء صحيين وعلماء ومتطوعين. وظهرت بمعظمها حوالي سنوات 1830: الجمعية الفرنسيّة للإحصاء الشامل (1829)، الجمعية الحرة للإحصاءات (1830)، الجمعية الإحصائية في لندن (1833)، جمعية مانشستر الإحصائيّة (1833). . . وكانت تنشر بصورة منتظمة تحقيقات وتقارير كانت تقوم الصحافة بدورها بالتعليق عليها.

2 ـ انطبعت هذه الحقبة، من وجهات نظر متعددة، بإيمان علموي بحسنات القياس الذي تضمنه تطور الطرق الإحصائية ونجاحاتها الأولى لدى تطبيقها على الوقائع الإنسانيّة[2]. وبهذا الخصوص كتب ألكسندر پاران دوشاتليه Alexandre

(1) L. R. Villermé, Tableau de l'état physique et moral des ouvriers employés dans les manufactures de coton, de laine et de soie, Paris, 1840.

(2) إن المبادر الأول في هذا المجال هو الإحصائي البلجيكي آدولف كيتليه Adolphe Quételet (1796 ـ =

Parent - Duchatelet قائلاً:

«هل يستطيع أي عقل راجح في عصرنا الحاضر أن يرضى بهذه العبارات: كثيراً، معظم الأحيان، بعض الأحيان، غالباً، الخ... التي كنا نكتفي بها حتى الآن (...) كل إدعاء من هذا النوع لا قيمة له بدون الأرقام التي وحدها تسمح بالمقارنة: فلا يتقدم العلم إلاّ بواسطة هذه الطريقة، حيث نقدم للإدارة الوسيلة للسير من تحسّن إلى تحسّن»[1].

فهل يمكن القول إذن إنه من خلال التحقيق الاجتماعي، بالمعنى الواسع للكلمة الذي أعطاه إياه القرن التاسع عشر، تهيأت الأشكال الأولى لمعرفة سوسيولوجيّة بحتة:

فكما أكّد ر. إ. كنت[2] R. E. Kent أن الكثير من التحقيقات التجريبيّة التي أنجزت في هذه الفترة تتعدى مجرد «السوسيوغرافيا الوصفية»، لقد نشأت بصورة مبكرة تقنيات جمع المعلومات (الاستمارة ـ دليل المقابلة)، والتحليل الإحصائي للمعطيات (حساب الوسيط والنسب المئوية والجداول المتقاطعة التي استبقت بشكل واضح طرق علم الاجتماع التجريبي في القرن العشرين بل أكثر من ذلك فإلى جانب المقاربة الكمية للظواهر هناك تيار كامل من «الاستكشاف الاجتماعي» الذي فضّل الدراسة النوعية المستندة إلى الملاحظة. وقد أدى هذا إلى وصف في معظم الأحيان حاد كوصف عمال النسيج في مولوز MulHouse الذين زارهم ڤيلليرميه Villermé:

«كان بينهم، كثير من النساء الشاحبات، الهزيلات اللواتي يمشين حافيات في الوحل، وبما أنه ليس لديهن مظلات فهن يضعن على رؤوسهن، عندما تمطر مراييلهن مقلوبة أو طبقة من تنانيرهن لحماية وجوههن وأعناقهن، كما كان بينهم

= 1874) الذي طبق بصورة منهجية قوانين التوزع الإحصائي على مؤشرات اجتماعيّة وإنسانيّة متعددة: Essai de physique sociale, Paris, 1835; Anthropométrie ou mesure des différentes facultés de L'homme, Bruxelles, 1870.

(1) De la prostitution dans la ville de Paris, 1836, rééd. Paris, le seuil, 1981, Introduction, p. 67.

(2) Op. cit., p. 28 et sq.

عدد أكبر من الأولاد، لا يقلون شحوباً ولا ضعفاً يرتدون الأسمال الملطخة بزيت الآلات الذي كان يسقط عليهم عندما كانوا يعملون». (المرجع نفسه).

فسواء ارتبط هذا التيار بسابقه ـ وهذا ما كان عليه حال ڤيلليرميه Villermé إذ انفصل عنه بصورة واضحة فلا يمكنه إلاّ أن يدعم الفكرة القائلة إنه على هذا النحو ستتكون بدايات المعرفة العلمية للإجتماع.

فقد أخذت هذه بلا شك شكلها النهائي في أعمال الفرنسي فريديريك لو پلاي Frédéric Le Play والإنكليزي شارل بوث[1] Charles Booth. ولكن انطبعت هذه في نفس الوقت بثغرات معرفة شديدة الجهل للشروط الإپستمولوجيّة لبناء العالم.

3 ــ إن حالة فريديريك لو پلاي (1806 ـ 1882) هي الأكثر نموذجيّة. كان هذا الطالب القديم في البوليتكنيك Polytechnique مهندس مدرسة المناجم الذي تحققت كليّاً تطلعاته المهنيّة داخل هذه المدرسة حيث شغل وظائف مختلفة متتالية، في الوقت نفسه مخترعاً لطريقة منهجيّة في جمع المعطيات الاجتماعيّة ومستشاراً ذا تأثير عند نابليون الثالث، وصاحب رتبة عالية في الامبراطورية الثانية، ومؤسس حركة دراسة وإصلاح هي جمعية الاقتصاد الاجتماعي التي عبر تقلبات مختلفة، استمرت حتى أيامنا هذه[2]. إن مؤلّفها الأساسي، «العمال الأوروبيّون، لعام 1855»، يقدم 36 دراسة فردية لعائلات عمالية أنجزت في كل أوروبا مدشناً بذلك تقدم حركة بحث أدت، بواسطة جمعية الاقتصاد الاجتماعي، إلى نشر 13 مجلداً من المونوغرافيا بين 1857 و 1912 تحت عنوان عمال العالميْن.

---

(1) شارل ج. بوث Charles J. Booth (1840 ـ 1916) هو السيد بلا منازع للتحقيق الاجتماعي البريطاني للنصف الثاني من القرن وأحد الممهدين الأكثر تأثيراً في علم الاجتماع التجريبي الحديث. فأعماله المخصصة بغالبيتها لدراسة الفقر في لندن، (Life and Labour of the People of London, 1892 - 1903, 17 Vol).

تستند إلى مجموعات من المعطيات الشاملة، معدّة عائلة عائلة، وذلك بفضل مساهمة school board vistors فسمحت له بإقامة تصنيف للفقر ويرسم خريطة له، كل شارع بمفرده، وبالبحث عن الأسباب؛ بواسطة مؤشرات وجداول متقاطعة (Cf. Charles Booth's London, Londres, Penguin Books, 1975).

(2) لدراسة حديثة عن حركة لو پلاي Le play يراجع B. Kalaora et A. Savoye, Les inventeurs oubliés, Seyssel, Champ - Vallon. 1989.

إن الطريقة التي اتبعها لو پلاي Le Play يمكن أن تضبط بطريقتين مختلفتين: من خلال الدراسات الفردية المنشورة ونمط البناء الذي يحتويها، ومن خلال العرض الذي قدمه لها المؤلِّف في نهاية حياته عام 1879 في كتاب عنوانه «الطريقة الاجتماعيّة»(1).

لقد تميزت الدراسات المنفردة بتصميم منهجي وموحّد لجمع وعرض المعطيات ويتضمن 13 مقطعاً مجموعة من أربعة أجزاء كبيرة: 1 ـ تحديد المكان والتنظيم الصناعي والعائلة؛ 2 ـ أسباب عيش العائلة؛ 3 ـ نمط عيش العائلة؛ 4 ـ تاريخ العائلة.

إن هذا التصميم لا يُمسّ. وحسب الحالات يمكن إكماله بملحقات. وهكذا ذيّلت في كتاب «عمال العالمَيْن»(2) الدراسة المخصصة للنجّار الفرنسي بملاحظات عن رابطة العمال وعن إضراب 1845 وعن الورش الباريسيّة الخ... وتلك الدراسة عن الغاسلات في لِيْل Lille فيها معلومات عن الوضع العمالي في ليل Lille وتأثير بلجيكا واستخدام المشروبات... فالمعلومات التي يحتويها كل باب هي على جانب كبير من التفصيل والدقة؛ فهي تكشف عن تاريخ مختلف أفراد العائلة، وعن السلوك الديني والصحي والغذائي وعن المعتقدات ومختلف الالتزامات. وتعنى بشكل كبير بالاقتصاد المنزلي والتقدير بالأرقام لجميع الأملاك: ملكيات عقاريّة، مال، أدوات مهنية، أثاث، أدوات مطبخ، ثياب. ويجري تقدير ثمن كل قطعة وكل صنف من الموجودات. بمجموع فرعي خاص: وهكذا يملك النجار الباريسي ما قيمته 1870 فرنكاً من الأثاث والثياب، موزعة إلى 868،70 فرنكاً من الأثاث، 194،20 فرنكاً من البياضات 69،65 فرنكاً من أدوات المطبخ، 737،45 فرنكاً من الثياب وهذه الأخيرة تتضمن ثياب العمل وثياب الأحد وكذلك الزينة النسائية لكل العائلة: «مجوهرات: حلق من الذهب المصقول» 5،50 فرنكات؛ مشبك من الذهب المطعم بالزجاجيات، وجد في الشارع، 1،50 فرنك؛ ساعة من الفضة

(1) أعيدت طباعة هذا الكتاب عام 1989 في منشورات Ed. Méridiens Klincksieck، وزوّد بتقديم لـ A. Savoye عن مؤلف لو پلاي Le play.

(2) هناك طبعة جديدة طبق الأصل من مختارات مونوغرافيّة مستخرجة من كتاب «عمال العالمَيْن» لمنشورات A L'enseigne de l'arbre verdoyant, Thomery, 1983.

وسلسلة من الذهب تم شراؤهما بالمال الموروث عن الأخت، 210 فرنكات، المجموع: 217 فرنكاً.

إن مثل هذه الطريقة تدشن، في العلوم الاجتماعيّة، عملية الترميز: فالمعلومات مجمّعة ومرَتّبة تبعاً لتصنيف مسبق. وهي تشكل نقطة انطلاق للمقارنات المنتظمة التي ستفتح الطريق أمام التحليل الكثير التنوُّع لعلم الاجتماع التالي: فإذا أخذ عامل محدد موضوعاً لدراسة ـ مثلاً نسبة اللحوم في الغذاء اليومي ـ فمعالجة هذا الموضوع تسعى إلى المقارنة متغيراته بمتغيرات المعطيات الأخرى التي تم جمعها: مستوى المداخيل، المهنة، المعتقدات الخ. . . غير أن لو پلاي Le Play لم يلتزم ولا بأي شكل من الأشكال بهذا الاتجاه. فالمعطيات الكمية التي جمعها هي قياسات فورية حتى لو جرى بناؤها من جديد: الأعمار، المساحات، الأسعار. ولا يتعلق الأمر أبداً بما عرف من الطرائقيّة اللاحقة باسم المؤشرات. ففي الواقع إن هموم الترميز والتقييم الكمي وضعها في خدمة نظرية للمجتمع غير علمية وإيديولوجيّة.

فقراءة كتاب «الطريقة الاجتماعية» هي في هذا الخصوص شديدة الفائدة. فقد أكبّ لو پلاي Le Play في هذا الكتاب على تاريخيّة وخلاصة مسارٍ محورُه المركزي هو الرغبة في تقديم دواء لأمراض العصر:

«لقد رأيت عام 1827 في الفترة التي تركت فيها مدرسة البوليتكنيك ولادة آلام اجتماعية أخذت اليوم طابعاً شديد الخطورة: ومثل زملائي النوابغ في الدراسة فكرت قبل كل شيء بالطريقة التي تعالج بها هذه الآلام»[1].

فبدل البحث عن حلٍّ في إطار نظام جديد مقتنعاً بأن «الناس أرادوا دائماً طلب السعادة والهرب من الألم» اختار لو پلاي Le Play طريق ملاحظة الوقائع. مما قاده إلى الاكتشاف ثمين: «لشفاء الآلام الاجتماعية لا شيء يمكن اختراعه».

«فحيثما كان تكمن السعادة في إشباع حاجتين رئيسيّتين تفرضهما حكماً

(1) F. Le play, La méthode sociale, 1879, rééd. Paris, Librairie des Méridiens Klincksieck, 1989, p. 12.

طبيعة الإنسان. لقد أشير إلى أهمية ذلك من قبل الأعراق الكبرى (. . .)، الأولى: هي تطبيق القانون الأخلاقي، المرتبط بالإيمان بأن هذا القانون المنبثق من الله هو المتمم للتكوين المادي للإنسان (. . .) والثانية: هي التمتع بالخبز اليومي. فعند الأعراق المزدهرة تتأمّن هذه الحاجات بالقانون الأساسي: بواسطة العنصرين الرئيسيين والدائمين، الوصايا العشر الأزلية والسلطة الأبوية، وبواسطة العناصر الخمسة المتغيرة: طقوس الدين، تنظيم السيادة، والأشكال الثلاثة للملكية العقاريّة (المرجع نفسه ص 270).

يبدو أن هذه القناعات قد تكونت شيئاً فشيئاً عند لو پلاي Le Play. فأسفاره المتعددة وبنوع خاص مواجهته البطريركيّة في روسيا الجنوبية عام 1837 هي التي شكلت قاعدة هذه القناعات. فهي ستكون نواة الأفكار التي دافع عنها لو پلاي Le Play بعناد بعد عام 1850 والتي ستشكل برنامجه للإصلاح الإجتماعي. وأهميتها أنها تتوافق بشكل محكم مع نظرية وضعية للوقائع متأثرة بشكل واضح بالعلوم الفيزيائية التي تحكم قانون جمعها واستخدامها.

وهكذا فإن الهمّ الجديد بنوع خاص عند لو پلاي Le Play في إجراء دراسات فردية مقارنة للعائلات المنتمية إلى أطر مختلفة جداً والدقة في التوجهات المعطاة للمحققين الحقليين والشمولية في الفئات المعتمدة يهدف بشكل أساسي وفي نهاية التحليل إلى تكوين «جردة بالوقائع المتعددة» التي تجري المقارنة فيما بينها عفوياً وتوضع استنتاجاتها بشكل طبيعي تحت السلطة البديهيّة لإحدى النظريات. هذا النوع من الربط بين مراكمة المعطيات المجمّعة والمصنّفة بدقة متناهية والتنظير الضعيف المفكك الذي يستخدم مصطلحات غير منتقاة، إيديولوجية وأخلاقيّة في الغالب، هو أحد الثوابت في نمط بناء المعرفة الاجتماعيّة طوال القرن التاسع عشر.

ثانياً ـ ديمقراطية واشتراكية

1 ــ كانت التحقيقات الاجتماعيّة والتعدادات الإحصائيّة تخضع في القرن التاسع عشر للهم نفسه: المعرفة من أجل العلم. فالانقلابات الاجتماعيّة والسياسيّة

التي أحدثتها الثورة الصناعيّة وبروز شرائح اجتماعيّة جديدة، وإلحاح وعنف المشاكل المطروحة تربط بشكل محكم رغبة المعرفة بإرادة التدخل. ولكن هذه الأخيرة تصب في المجال السياسي: فالوقائع التي سلطت عليها الأضواء تستخدم كحجج لإعداد قوانين للحماية الاجتماعيّة أو لإدانة مبرمة للنظام السياسي الاقتصادي. لم يعد الأمر متعلقاً بتجميع المعلومات، وإنما بفهم المبدأ الذي يحكم تنظيم المجتمع. مثل هذا العمل قد تكون له فوائد متنوعة. ويشهد على ذلك تعدد التيارات الاشتراكيّة والفوضويّة والإصلاحيّة خلال القرن التاسع عشر. ولكن لها أيضاً أهمية أخرى: هي الربط في وحدة جديدة بين الاهتمامات والرغبة في معرفة العصر حيث النماذج الكبرى في الفلسفة السياسيّة وفلسفة التاريخ.

وهكذا ترتسم طريق أخرى في بناء معرفة الاجتماع. ففي هذه المعرفة لم يعد الاهتمام مركزاً على تراكم المعطيات التجريبيّة واستخراج الإنتظامات الإحصائيّة بل على إبراز المبدأ المنظم، فتوكفيل Tocqueville وماركس Marx اللذان جرت العادة على المقارنة بينهما يمثلان كلاهما، (خير تمثيل) هذه الطريق.

2 ـ يبدو أن ألكسيس دو توكفيل Alexis de Tocqueville يعطينا مفتاح عمله بالعبارتين التاليتين:

«نحتاج إلى علم سياسي لعالم جديد بكليته»[1].

«إن تنظيم الديمقراطية وتوطيدها بين المسيحيين هما أكبر مشكلة سياسيّة في عصرنا، فالأميركيون لم يحلوا هذه المشكلة لكنهم يقدمون معلومات مفيدة للذين يريدون حلها» (المرجع ذاته ص 420).

إن الفكرة المركزيّة عند توكفيل Tocqueville هي التقدم الحتمي للديمقراطيّة. فسواء فرضت عليه هذه الفكرة أثناء أول إقامة له في الولايات المتحدة، كما يشير إلى ذلك في مقدمة كتابه «الديمقراطية في أميركا» أو تكوّن عنده تصميم لها قبل ذلك بكثير، فالمهم بشكل أساسي هو معرفة مكانتها في

(1) A. de Tocqueville, De la démocratie en Amérique, 1835, t. I, Introduction, Paris, Garnier - Flammarion, 1981, p. 62.

مسيرته المعرفيّة.

ولكن هذه المكانة واضحة: فالديمقراطية أو المساواة في الحظوظ التي تشكل المبدأ الذي تطمح إليه المجتمعات الحديثة من خلال أهوال الثورات، استطاعت الاستتباب أولاً والتطور رسمياً» في الولايات المتحدة حيث يبدو «كواقع أساسي يتولّد عنه كل واقع خاص» (ص 57). فدراسة أميركا هي دراسة الديموقراطيّة المطبقة، وذلك ليس بهدف تفخيمي، كما يذكرنا توكڤيل Tocqueville في نهاية مقدمته، بل من أجل «التعرف بوضوح إلى نتائجها الطبيعيّة».

ففهم التنظيم الاجتماعي من خلال التنظيم السياسي وإعادة هذا الأخير إلى مبدأ وحيد يلتقي مع إشكاليّة مونتسكيو Montesquieu. بالمقابل إن فهم هذا المبدأ على اعتباره التحدي الحاسم للمرحلة التاريخيّة الحالية وأخذ المجتمع الحديث وليس المجتمعات القديمة أو التاريخيّة كحقل دراسة، والإقامة فيه سنة (من نيسان 1831 ـ إلى آذار 1832) من أجل المراقبة على أرضه لتطور التطبيق الفعلي للمبدأ، كلها سمات لمسيرة المعرفيّة الجديدة.

ولكن هذه الأخيرة يصعب التعرف إليها. فتوكڤيل Tocqueville لا يعتمد الرجوع إلى المصادر كما يفرض علم الاجتماع الحديث. عدا الوقائع الحقوقية أو المؤسسية التي لها نصوص يمكنه ذكرها ان خطابه يصبح إيحائياً: وهذا واضح بنوع خاص في المجلد الثاني عن «الديمقراطية». إذن هو يحاول في هذا الكتاب في الوقت نفسه حل مسائل محددة جداً: «لماذا يحب الأميركيون تطبيق العلوم أكثر من اهتمامهم بالنظرية» (I. chap. X)؛ «لماذا الكتاب والخطباء الأميركيون هم غالباً مدّعون» (I. chap. XVIII)؛ «لماذا نجد في الولايات المتحدة الكثير من الطموحين والقليل من الطموحات الكبيرة» (III, chap. XIX)؛ .... يستخدم توكڤيل Tocqueville في هذا التمرين، بصورة عفوية، طريقة هي أشبه ما تكون بالوسيلة، وإن لم يكن متمكناً منها تماماً: هي إعادة بناء انعكاسيّة لمنطق سلوكي.

«لماذا عند الأميركيّين القليل من قابلية التأثر في بلادهم وشدة قابلية التأثر في بلادنا؟ (III, chap. III) فالتطور عند توكڤيل Tocqueville هو كالتالي:

ـ المجتمعات الأرستقراطيّة تضع القواعد للعلاقات بين الأفراد. على العكس في المجتمع الديمقراطي حيث الفروقات في المراتب تزول، تفقد اللياقات من أهميتها.

ـ إن الأمور في الولايات المتحدة تسير بهذا الشكل: فنلاحظ فيها تسامحاً وثقة متبادلة بين الأميركيين في علاقاتهم؛ فالمؤسسات السياسيّة، تحث الأفراد من كل الطبقات على التلاقي والتعاون، «ولا يسمح الإنسان لنفسه فيها أبداً بالتأثر بالترّهات».

«لقد لاحظت عدة مرات في الولايات المتحدة، أنه ليس من السهل أبداً أن نقول لشخص ما أن وجوده مزعج. فلكي نتوصل إلى ذلك لا تكفي الطرق الملتوية دائماً».

«ولكن إذا انتقل «هذا الشخص نفسه» إلى أوروبا فيصبح «التعاطي معه دقيقاً وصعباً» لماذا؟ لأنه بكل بساطة «ينشأ هذان التأثيران المختلفان عن سبب واحد». فإذا واجه مجتمعاً لا يزال يحافظ جزئياً على تراتبيته، وإذا كان يجهل اللياقات، فلا يعود يعرف كيف يحدد موقعه، ويخشى دائماً أن يجرح أحداً أو أن يتعرض للإساءة:

«فيسير إذن دائماً وكأنه شخص محاط بالمكائد؛ ولا يكون المجتمع بالنسبة إليه ترفيها ولكن عمل جاد، فهو يزن أقل تحركاتك ويتساءل عن بعض الإيماءات الخفية التي قد تجرحه».

إن منطق توكڤيل Tocqueville إذن يقوم على جعل السلوك الاجتماعي معقولاً من خلال المبدأ المنظم لمجتمع معين. بالرغم من استخدام التفكير السببي ومحاولة هذا الجزء إبراز تأثير الديمقراطيّة على العادات بمعناها الواسع، فالسلوك لا ينجم عن المبدأ؛ فهو يُبنى في منطقه الداخلي ويصبح قدوة بواسطة طرائف نموذجيّة. يرتسم وراء أطروحة المؤلف الاجتماعيّة السياسيّة في أساسها يرتسم نمط معالجة للاجتماع الذي سيصبح في التقليد اللاحق نمط علم الاجتماع الإدراكي.

3 ـ إذا كانت المرجعيّة المعرفيّة لتوكڤيل Tocqueville كما يبدو أنه يجب

البحث عنها أولاً عند مونتسكيو Montesquieu ومرجعية ماركس Marx هي مما لا شك فيه عند هيجل Hegel: فإن معرفة الاجتماع عند ماركس هي بنت لفلسفة التاريخ.

إلاّ أن ماركس 1818 ـ 1884، على مثال توكڤيل ينخرط بعمق في عصره. هذا لا يتأثر فقط بروابطه الوثيقة مع الحركة العمالية الناشئة وبالتزامه السياسي الجذري: فما قدمه لمعرفة الاجتماع يكون ضعيفاً إذا اختصر بصياغة عقيدة سياسيّة. كما أنه لا يتأثر أيضاً باستنباط وتطوير نظرية لها جمهورها ووزنها السياسي الحاسمان طوال حوالي القرن. إن المساهمة الأساسيّة لماركس تكمن في بناء إطار وطريقة تحليل للإجتماع لا مثيل لها في القرن التاسع عشر.

وهذه يجري التعبير عنها بكثير من الدقة في النص الشهير لمقدمة مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي:

«يدخل الناس في إنتاجهم الاجتماعي لوجودهم في علاقات محددة، ضرورية، مستقلة عن إرادتهم تتوافق مع درجة محددة من تطور قواهم المنتجة المادية. مجموع علاقات الإنتاج هذه تشكل البنية الاقتصادية للمجتمع، القاعدة المحسوسة التي تقوم عليها بنية فوقية حقوقيّة وسياسيّة والتي يتناسب معها أشكال محددة من الوعي. إن نمط إنتاج الحياة المادية يحدد مسار الحياة الاجتماعي والسياسي والفكري العام. ليس وعي الناس هو الذي يحدد وجودهم بل العكس الوجود الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم. تدخل علاقات الإنتاج المادية للمجتمع في مرحلة معينة من تطورها في تناقض مع علاقات الإنتاج الموجودة أو ما هو ليس سوى التعبير الحقوقي عنها، أي علاقات الملكية التي كانت تتحرك ضمنها حتى الآن، وبينما كانت هذه العلاقات هي أشكال تطور القوى المنتجة أصبحت عائقاً أمامها عندها. تبدأ حقبة من الثورة الاجتماعية»[1].

يقدم ماركس في الحركة المفهومية نفسها المبدأ الذي يمكن تسميته الهندسة المعمارية للاجتماع وديناميكيته. فالمجتمع يتألف من ثلاثة طوابق: بنية تحتية

(1) K. Marx, Contribution à la critique de l'économie politique, 1859, Paris, trad. Ed. Sociales, 1978, P. 2-3.

اقتصادية، بنية فوقيّة حقوقيّة وسياسيّة، ثم أشكال من الوعي الاجتماعي. بين هذه الطوابق يجري التحديد من الأسفل إلى الأعلى. فمبدأ تنظيم مجتمع معين يكمن في تنظيمه الاقتصادي، في «نمط إنتاجه» الذي هو أساس الحياة الاجتماعيّة بمجملها. ولكن نمط الإنتاج هذا هو بحدّ ذاته بنية ديناميكيّة تجمع بين القوى المنتجة (أي وسائل العمل) وعلاقات الإنتاج، أي العلاقات بين الناس ووسائل العمل من جهة وعلاقات الناس فيما بينهم من جهة ثانية. فالقوى المنتجة هي إذن قابلة للتطور، والتعدد والتعقد شيئاً فشيئاً مع التطور الاقتصادي. على العكس تتجه علاقات الإنتاج للتقيّد في علاقات حقوقيّة تجمدها فضلاً عن ذلك هي قاعدة العلاقات الطبقيّة: إن مصانع القرن السادس عشر بتجميعها في المكان نفسه العديد من العمال ستعقلن عملية الإنتاج. بإدخال تقسيم المهمات، وبالتالي زيادة قدرتهم الإنتاجيّة بشكل كبير. ولكن تطوراً على هذا الشكل للانتاج يفترض وجود عمال عندهم حرية اختيار العمل. فهو يدخل إذن في تناقض مع العلاقات الإقطاعيّة التي تربط الفلاح بالأرض ومع تشريعات الطوائف المهنية التي تربط العامل بالمهنة. هذا التناقض هو تماماً دعامة الثورة الصناعيّة، التي هي ليست سوى إحلال نمط إنتاج ومجتمع رأسمالي مكان نمط إنتاج ومجتمع من نوع إقطاعي.

ففي صميم هذا العرض وكذلك أيضاً في مختلف تحليلات ماركس الملموسة، ومهما كان المستوى الذي تمارس عليه، إن مفهوم التناقض يردنا إلى مقاربة جدلية للظواهر. فهذه الظواهر يجري تحليلها ليس كبنيات ثابتة ولا كنتائج قوانين فيزيائيّة، بل كلحظات من مسار الصيرورة التي يجب معرفة جوهرها. فالتاريخ يدخل بهذا الشكل في فكر علم الاجتماع الناشئ[1]، ليس فقط كأفق وإطار أو نهاية النشاط البشري بل كبعدٍ مكوِّن للاجتماع.

إن المشاكل الكبرى المطروحة منذ بداية سنوات 1830 يلقي عليها إذن الضوء مجدداً. فالوقائع المقدمة في التحقيقات العمالية عن فقر الطبقات الشعبية ستجد

(1) بخصوص الجدليّة نرجع مستفيدين من وجهات نظر مختلفة لـ هـ. لوفيفر Lefèvre, Logique formelle, logique dialectique, Paris, Ed. Sociales, 1946, et de G. Gurvitch ج. غورفيتش Dialectique et Sociologie, Paris, Flammarion, 1962.

نظرية قادرة على استخراج مبدأ منها: إن علاقات الإنتاج الرأسماليّة الجديدة تتطلب يداً عاملة وفيرة وغير مؤهلة حيث التطور الآلي يضعف حتى من حدود تعبئة القدرات الجسدية؛ فالنساء والأولاد يمكنهم السير نحو المناجم وفبارك النسيج الكبرى. فتعاسة العمال ليس حادثاً ولا النتيجة المؤقتة لتحول اقتصادي ضروري، بل تدخل في أعمق أعماق عمل النظام الرأسمالي: إن صاحب المشروع هو مرغم على التثمير دائماً أكثر في الآلات ولا يؤمن ربحه بالمقابل إلاّ بزيادة حصة فائض القيمة التي يكسبها من عمل العمال. فاتجاه معدلات الربح إلى الانخفاض، والاستغلال المتزايد للطبقة العاملة، والتحول الدائم للبورجوازيّة الصغيرة نحو البروليتاريا هي كلها تناقضات يصعب تخطيها منذرة الرأسماليّة بالفشل وبتجاوزها بنمط إنتاج جديد.

نتصوّر إذن كم أن التحليل الاقتصادي بكل معنى الكلمة للرأسماليّة، والدراسة الاجتماعيّة السياسيّة للصراعات الطبقيّة التي غلفت العصر والالتزام السياسي داخل حركة اشتراكيّة ناشئة، استطاعت أن تجتمع في نظرية وحيدة أطلق عليها ماركس Marx وأنغلز Engels اسم المادية التاريخيّة. فما هي مساهمة هذه الأخيرة في بناء علم الاجتماع؟

إن الإجابة على هذا السؤال تزداد صعوبة كلما أقامت الماركسيّة طوال تاريخها، حواراً معقداً مع العلوم الاجتماعيّة يحتمه كيانها كنظرية مرجعيّة للأنظمة الاشتراكيّة. لقد تدخلت في حقل علم الاجتماع كموضوع مرفوض بسبب التزاماتها الإيديولوجيّة، أو كموضوع ساحر بسبب قدرتها التفسيريّة وجذريتها النقديّة، بطريقة جد مختلفة وحسب الوزن الذي أعطاه لها الوضع التاريخي والسياسي: جدالات داخل الأمميّة الثانية. دعم الثورة أكتوبر. مقاومة النازيّة، الحرب الباردة، إنتفاضة سنوات الستين. . . فإذا كانت بهذا المعنى مؤسسة لعلم الاجتماع، فإن وضعها الإيديولوجي يخفي غالباً مساهمتها النوعية لدرجة أن العودة إلى ماركس تصبح أحد شعارات الفكر الماركسي للقرن العشرين.

فمساهمة ماركس في بناء علم الاجتماع بكل معنى الكلمة تمّ إذن تدريجاً وبكشوفات متتالية. فالمرجعيّة الهيغليّة والالتزام الاشتراكي لهما السيطرة الأولى.

ولم توضع الموضوعات الأكثر فائدة في الواجهة إلاً شيئاً فشيئاً بواسطة الجدالات داخل أو مع الفكر الماركسي: المفهوم الهندسي للمجتمع وتحدد البنية الفوقيّة الإيديولوجيّة والحقوقيّة بالبنية التحتيّة الاقتصادية؛ نشوء الطبقات الاجتماعية ودور صراعاتها في تطور المجتمعات؛ المقاربة الجدلية كفهم للديناميكيّة الداخليّة للبنيات أو الوضعيات المدروسة.

ثالثاً ـ مقدمات لعلم اجتماع علمي

1 ـ إن بناء حقل علمي معين لن ينتج لا عن تيارات التحقيق الاجتماعيّة ولا حتى عن تيارات التفكير والالتزام الاجتماعي السياسي؛ وفي الحالتين تتبع المعرفة فيهما قيماً عملية. وعلى العكس من ذلك سيحاول تيار ثالث طيلة القرن وحسب أشكال ووسائل مختلفة أن يدرج معرفة الاجتماع في إطار العلم.

2 ـ إذا كان أوغوست كونت Auguste Comte يعتبر أحياناً كالأب المؤسس لعلم الاجتماع الحديث فلأنه بالتأكيد أول من تحدث بوضوح عن ضرورة وجود علم الاجتماع العلمي: «بما أن الفكر البشري الآن قد أسس الفيزياء السماوية، والفيزياء الأرضيّة سواء الميكانيكيّة أو الكيماويّة والفيزياء العضويّة سواء النباتيّة أو الحيوانيّة، يبقى عليه أن يتمم نظام علوم الملاحظة ببنائه للفيزياء الاجتماعيّة. هذا ما هو اليوم، على ضوء عدة علاقات رئيسيّة، أكبر وألح حاجة لعقلنا: مثل هذا الشيء، أقولها بجرأة، هو الهدف الأول لهذه المحاضرة، هدفها المميز»[1].

إنما تحديد الهدف لا يحكم مسبقاً على الطريقة التي نحقق بها. مارس أوغوست كونت (1856 - 1738) Auguste Comte خلال القرن التاسع عشر تأثيراً كبيراً. دخل كونت إلى مدرسة البوليتكنيك في عمر الخامسة عشرة وطرد منها، لأنه كان على رأس مظاهرة ضد أحد الأساتذة، وأصبح سكريتاراً لسان سيمون Saint - Simon، لعدة سنوات وكأن عليه أن يعيش حياة بائسة رغم عودته إلى

(1) A. Comte, Cours de philosophie positive, 1830 - 1842, Paris, Librairie Garnier, 1926, première lecon, $ VI, p. 44 - 45.

مدرسة البوليتكنيك كمعيد. ثم طرد تدريجياً من المدرسة، ولم يتمكن من العيش منذ 1852 إلاّ بفضل إعانات ماليّة مقرّرة لتأمين حاجاته: «فالكاهن الكبير للبشريّة عاش من الديانة الجديدة» هذا ما كتبه أحد المعلّقين[1].

إن تقييماً من هذا النوع يمكن أن يفاجئنا إذا نسينا أن الفلسفة والعلم والدين تلتقي بشكل مميز في كونت حيث يأخذ كتابه الكبير الأخير العنوان التالي: نظام السياسة الوضعية أو مؤلف علم الاجتماع مؤسس ديانة البشرية.

إن مفهوم المشروع، ومكانة علم الاجتماع في هذا المشروع، والقانون الشهير للحالات الثلاث الذي يعتبره كونت اكتشافه الأساسي منصوص عنها منذ 1822 في كتيب يرتسم فيه بالواقع برنامج جرى اتباعه بصورة دقيقة: خطة الأعمال الضرورية لإعادة تنظيم المجتمع[2]. فتوجه الكتاب هو بدرجة أساسية عملي. الأمر يتعلق بإعادة تنظيم المجتمع، وإخراجه من حالة الأزمة التي يعيش فيها. ولكن هذه الأزمة توضح أن تغيراً يجري في الحضارة، كما تدل على ذلك العبارات الأولى في كتابه:

إن نظاماً اجتماعياً يتلاشى، ونظاماً جديداً وصل إلى نضوجه الكامل ويحاول أن يتكون، هذا هو الطابع الأساسي الذي يطبع العصر الحالي بفضل التقدم العام للحضارة» (صفحة 56).

لمواجهة هذه الأزمة، «الفوضوية التي تجتاح المجتمع يوماً فيوماً»، إن الحلول العدائية في العودة إلى العصر اللاهوتي والليبراليّة الحديثة هي ضارة من حيث إنها لا تعتمد «اتجاهاً عضوياً» لمعالجة المشكلة.

«إن مصير المجتمع الذي بلغ النضج ليس أبداً العيش دائماً في الكوخ القديم والبالي الذي بناه في طفولته، كما يفكر الملوك؛ وليس العيش دائماً بدون مأوى

(1) Ch. Le Verrier, Introduction au Cours de philosophie positive, Librairie Garnier, op. cit., p. XIX.

(2) Réédité Paris, Aubier - Montaigne, 1970, avec présentation et notes par A. Kremer - Marietti.

بعد تركه كما تفكر الشعوب؛ ولكن، بواسطة الخبرة التي اكتسبها، أن يبني بكل المواد التي راكمها البناء الأكثر توافقاً مع حاجاته وملذاته. هذه هي المهمة الكبير والنبيلة الموكولة إلى الجيل الحالي» (ص. 71).

وبالتالي يحتاج هذا المشروع الكبير إلى طريقة أخرى تختلف عن تلك التي اتبعها كل المصلحين الاجتماعيين. والادعاء بإمكان التوصل إلى ذلك بدستور جديد أو بخطة جديدة مصوغة خلال عدة شهور هو «سراب مستغرب»، بل على العكس يجب تصوره «كمهمة أساسها نظري» تجتمع فيها المعرفة مع القيم محددة كهدف أول لها «إعادة تنظيم روحي للمجتمع». يمكن إذن عند هذه النقطة من التطور أن تتحدد الخطوط الكبرى لتفكير كونت:

ـ ليس هذا الإصلاح من مهمة المشرِّعين بل العلماء: «يجب أن يرفع العلماء اليوم السياسة إلى مصاف علوم الملاحظة» (ص. 94).

ـ يجب أن يستند إلى حالة التطور الضروري الذي توصل إليه الفكر، حالة العلم الوضعي، التي تلي حالات التفكير اللاهوتي والميتافيزيكي.

ـ يجب أخيراً، مع توطيد الفيزياء الاجتماعية، أن يجيب على السؤال التالي: «من خلال ملاحظة الماضي ما هو النظام الاجتماعي الذي يجب أن يقوم اليوم مع تقدم الحضارة؟» (ص. 128). إن مؤلف كونت يحقق هذا البرنامج على مرحلتين متتاليتين: الأولى، التي ظهرت مع محاضرات الفلسفة الوضعيّة تعود إلى ما يسمّيه «الصياغة الفلسفيّة»، بينما الثانية التي جرى التعبير عنها في نظام السياسة الوضعية هي «بناؤه الديني»[1]. ففي الواقع، إن المسارين متحدان ويضعان الفيزياء الاجتماعيّة في صميمهما، فالأولى تسعى إلى إتمام نظام من الفلسفة الوضعيّة تكوّن بالتقاء عقلاني لمجالاتٍ علميّة؛ أما الثانية فتسعى إلى بناء نواة روحيّة لسياسة وضعيّة من خلال علم الاجتماع فتأخذ عندنا اسم «ديانة البشرية».

ما هي نتيجة مسعىً من هذا النوع في بناء علم الاجتماع؟

(1) Système de politique positive, vol. 3, p. 5, rééd. en fac - similé, Paris, Anthropos, 1970.

ثلاثة أمور:

أ ـ إن «الفيزياء الاجتماعيّة» تجد مكانها المعرفي أي مكانتها كمجال علمي: فمحاضرات الفلسفة الوضعية[1] تقدّم تصنيفاً عقلانياً للعلوم من خلال خصائص موضوعها. فتقيم تعارضاً بين ظواهر الأجسام الخام وظواهر الأجسام المنظمة» وتضع ترتيباً للمعرفة من البسيط إلى المعقد؛ فالفيزياء «غير العضوية» (علم الفلك والفيزياء الأرضية) تسبق وتفترض مسبقاً الفيزياء «العضوية» (الفيزيولوجيّة والفيزيولوجيّة الاجتماعيّة) وعلى هذا النحو علم الاجتماع (الفيزيولوجيا الاجتماعيّة) هو آخر العلوم لأنه العلم ذو الموضوع الأكثر تعقيداً.

ب ـ هذا الموضوع يجب تناوله ببعدين: الستاتيك والديناميك.

ففي الجزء الأول من كتابه يعطي كونت Comte أهمية للديناميك الاجتماعي من خلال قانون الحالات الثلاث. وفي كتابه «**نظام السياسة الوضعية**»، يؤكد على الستاتيك الاجتماعي بارتكاز هذا الأخير على مفهوم النظام فهو يلتقي مع المجالات العلمية السابقة (البيولوجيّة ـ أو الفيزيولوجيّة حسب تعبير كونت comte)، مرتبطاً بقوة بالديناميك من خلال مبدأ عام، يحدد على الشكل التالي:

«إنه يقوم تماماً على اعتبار التقدم دائماً وكأنه التطور التدريجي للنظام. وبصورة معاكسة، إنه يقدم النظام معبراً عنه بالتقدم (جزء 2، ص. 2).

ج ـ العلم الاجتماعي منظوراً إليه على هذا النحو هو علم نظري فمكانته في البناء الهندسي للمجالات تسمح له باستخدام طريقة استنتاجيّة، مبنيّة على قانون مزدوج من النظام الكامن في الأجسام المنظمة، ومن التطور الضروري للفكر كما للحضارة البشرية، وبكلمة واحدة للبشرية. فما يقدمه كونت ليس إذن معارف جديدة ولكن عملية بناء مفهوميّة ونظرية للمراحل الكبرى للتاريخ البشري.

---

(1) Deuxième leçon, § IX et X.

فإذا اعتبر علم الاجتماع فضلاً عن ذلك كعلم وضعي للوقائع والملاحظات فهذه الأخيرة لا تساهم إلاّ في ملء إطار جرى رسمه مسبقاً.

3 ـ يوجد إذن عند كونت نمط محدد لبناء المعرفة. فالوضعية تفترض رفض كل سببية ميتافيزيكيّة وكل عودة إلى جوهر الأشياء فالانتظام الملاحظ في التجربة والمبني في قوانين هو وحده موجود. ولكن في حين يعمل العلم الناشىء بطريقة التلمس والاستقراء، فإن العلم المتطور بالاستناد إلى قوانين سبق وجرى إبرازها يمكنه أن يعمل بطريقة الاستنتاج: يكفي عندها أن تتمكن الوقائع من تدعم البنى النظرية. هذا النوع من الارتباط بين النظرية والتجريب هو في الواقع خارجي: فالإخصاب المتبادل الذي به يبنى الموضوع في أحد المجالات العلمية من خلال الامتحان المنضبط للفرضيات النظرية بواسطة معطيات مكونة بشكل منتظم هو غائب هنا كلياً. إلاّ أن هذه الخارجانيّة المتبادلة هي إحدى السمات الأكثر تمييزاً لعلم الاجتماع الناشىء. وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر سوف يتّسم هذا العلم من جهة بانتماء غير نقدي إلى نظرية عامة ومن جهة أخرى باهتمام دقيق وأحياناً هجاسي بالوقائع.

إنّ أهميّة وقوة مشروع أوغوست كونت Auguste Comte كان بإمكانهما إخفاء هذه الهشاشة الإپستمولوجيّة بسهولة لا سيما وأن مؤلف محاضرات الفلسفة الوضعيّة كان أقل اتّهاماً بالجهل في هذا المجال. على العكس لقد ظهرت هذه بكل وضوح في عدة نصوص حيث اجتمعت فيها خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر تطوريّة صنّفت أحياناً بالداروينيّة الاجتماعيّة مع استخدام غير نقدي بل أحياناً شبه هجاسي للوقائع.

إن النقطة المشتركة هنا هي في التماثل البيولوجي: فمن السهل الانزلاق في المفهوم التصنيفي من الجسم المنظم إلى مجاز الجسم الاجتماعي ومن هذه إلى تشابه نظام مع آخر وهي أيضاً في إرجاع تطور المجتمعات إلى تطور الأنواع والرغبة في بناء تراتبيات اجتماعيّة على أساس الفوارق البيولوجيّة: فالعضوانيّة، وعلم الجريمة الإيطالي والحركة التي سميت في نهاية القرن علم الاجتماع الأنتروپولوجي توضح بدرجات مختلفة هذا الانحراف.

فهذه بالطبع لها أسباب أيديولوجيّة: فتيار علم الاجتماع الأنتروپولوجي يريد أن يظهر أن:

«ما سُمي في عصرنا بالصراع الطبقي هو في العمق وبشكل ملتوٍ بقدر ما هو غير متوقع، صراع الأعراق. لنصرّح بأنه صراع أصحاب الجماجم العريضة ضد أصحاب الجماجم المستطيلة»[1].

ولكن ما هو جديد هو أن هذا الانبعاث لمفهوم عنصري قد وجد في علم الاجتماع التطوري من جهة وفي تقنيات القياس الأنتروبولوجي من جهة ثانية أدوات لإعطائه شرعية علمية: ففي فرنسا وإيطاليا وإسبانيا وإنكلترا كان يتم قياس المؤشر الدماغي لسكان متنوعين من أجل إبراز قانون للتراتبيّة الاجتماعيّة يؤدي في كل حالة إلى تراتبية للأعراق متشابهة. عمليات القياس والمقارنة وإيجاد الحجج هذه تبدو علميّة لدرجة أن السنة السوسيولوجيّة L'Année sociologique ستخصص لها باباً في أعدادها الثلاثة الأولى!

إن الانحراف الظاهر في العمل العلمي الذي استسلم له إيديولوجيُّو علم الاجتماع الأنتروپولوجي يعبّر إذن بوضوح عن الهشاشة المنهجيّة والإپستمولوجيّة لعلم الاجتماع الناشىء. حيث نجد أن الشوائب نفسها هي في خدمة أيديولوجية ليست مشتبهة بالعنصرية في علم الجريمة الإيطالي الذي كان تطوره كبيراً في ذلك العصر. لم تتوصل هذه المدرسة غالباً، بمراكمتها للقياسات والدلائل والوصف، إلى شيء آخر سوى ترتيب هذه التعدديّة التجريبيّة في تصنيفات غير نقدية لتطورية تافهة[2].

يبدو أن هذه الهشاشة تعود بشكل قوي إلى نوع من قصور خطير في بناء ومعالجة الموضوع، لا شيء أكثر وضوحاً في هذا السياق من الدعوة إلى التماثل

(1) O. Ammon, Histoire d'une idée, L'anthroposociologie, in La Revue internationale de Sociologie vol. VI, Paris, 1898, p. 144 - 181. A propos de ce courant, voir S. j. Gould, La mal - mesure de l'homme, trad. Paris, ramsay, 1983.

(2) راجع كتابي لومبروزو C. Lombroso, L'homme criminel, trad. Paris, Alcan, 1876. وبالتعاون مع فيريرو G. Ferrero, La femme criminelle et la prostituée, trad. Paris Alcan (1896).

البيولوجي الذي أفرط في استخدامه في الربع الأخير من القرن كتّاب من أمثال بول ليلينفلد Paul Lilienfeld أو رينيه وورمز René Worms[1]. فهذه تسمح بكل التبديلات الميكانيكيّة من نظام إلى نظام آخر، وتستبدل الدقة العلمية في معالجة الموضوع بفصاحة الاستعارة المنسوجة بلباقة.

في حين أنه قد يكون من الضروري لمجال ما كي ينشأ أن يمر بمثل هذه التلمّسات. لأنه إذا سمح التماثل البيولوجي بهذه الاحتيالات الموضوعة في خدمة إيديولوجيات مشبوهة، فهو يجعل ممكناً أيضاً إعادة تنظيم للوقائع التي حتى لو لم تصبح بعد علمية تماماً ولكنها تتجاوز مجرد التجميع. هذا ما ساهم به هربرت سبنسر Herbert Spencer (1820 - 1895) بدون أدنى شك.

وضع سپنسر Spencer المعلم والصحافي ومهندس سكك الحديد عملاً ضخماً تناول فيه على السواء البيولوجيا، وعلم النفس، والأخلاق والفلسفة وعلم الاجتماع. فباعتباره أحد مؤسسي التطوريّة فقد خصص لعلم الاجتماع مؤلفاً ضخماً من ثلاثة أجزاء حيث يظهر بوضوح نمط التفكير الذي يفرضه التماثل البيولوجي في مبادىء علم الاجتماع[2]، يطرح: «إن المجتمع هو كائن»: فزيادة الحجم، والتعقيد والتمايز الداخلي المتنامي، والتقسيم الوظيفي من خصائص الأجسام الحيّة والمجتمعات على السواء وتسمح تماثلاً ما يبدو أكثر فأكثر صعوبة كلما تعمقنا فيه[3]. فهذا التماثل يحكم مختلف التطورات اللاحقة المتعلقة بالنمو الاجتماعي والبنية الاجتماعية والوظائف الاجتماعيّة ومختلف الأجهزة. ففي كل مرة تطرح المقارنة هوية بنيوية ووظيفية وتوضحها بشكل متوازٍ لدى النظامين؛ وهكذا مثلاً:

«إنّ تشكل جهاز ضابط مركب حيث نجد مركزاً يحكم المراكز الأخرى التابعة يرافقه لدى الأجسام الفردية والاجتماعية زيادة في حجم وتعقيد المركز

---

(1) أسس وورمز عام 1893 La Revue internationale de Sociologie التي أصبحت منبراً للعضوانيّة وعلم الاجتماع الانتروبولوجي حتى نهاية القرن.

(2) The principles of sociology ont été publiés de 1876 à 1894 et traduits aussitôt en France.

(3) Les principes de sociologie, t.II, chap II., Paris, Librairie Germer, Baillère et Cie, 1879.

المسيطر». المرجع نفسه (ص. 107).

ـ لدى الأجسام الحية: تطور تدريجي للنظام العصبي المركزي.

ـ لدى الأجسام الاجتماعيّة: تقوية السلطة المركزيّة حول شخص القائد: «في جزر السندويش Sandwich... ايليس Ellis يقول أن ملك تاهيتي Tahiti... وفي جزر ساموا Samoa، كل رئيس مقاطعة لديه رئيس وزارة، استناداً إلى تورنر Turner... عند البيتجوانس Bitjouans... أخيراً لشتنشتاين Lichtenstein تقول لنا... أخيراً بورشل Burchell يعلمنا...».

ففي مسافة لا تتجاوز الصفحتين المطبوعتين يذكر سبنسر Spencer ما لا يقل عن عشر وقائع ثقافية لدعم نظريته الأوليّة.

إن نمطاً في التفكير التماثلي والتوضيحي من هذا النوع يمكن استخدامه بطرق متعددة، فعلى عكس علم اجتماع كونت الشديد التجريد يسمح هذا كما في حال سبنسر بتنظيم مجموعة من الوقائع الاتنولوجيّة والتاريخيّة والثقافيّة والمؤسسية على أساس منطق محدد هو منطق الوظيفيّة والتطوريّة. لم يعد الأمر يتعلق بالتجميع كما كانت تفعل الاتنولوجيا في العصر نفسه بل بترتيب منطقي. ولكن هذه الأتنولوجيا تبقى في هذا المجال على صلة خارجية بين النظرية والوقائع: «فالمعطيات الأتنوغرافية والتاريخيّة المقدمة هي «تحصيل حاصل» ولها مهمة أساسية هي التوضيح.

الفصل الثاني

الركـــائـز

لقد ظهرت معرفة الاجتماع في القرن التاسع عشر بمواجهتها للأزمة الاقتصاديّة والاجتماعيّة والثقافيّة التي من خلالها كان يتركز العالم الحديث، مطبوعة بفيض متنافر وغير منظم حيث تُختبر عدة حلبات: فتراكم التحقيقات قدم خزاناً هائلاً للوقائع، معززاً بروز الأجهزة الأولى للتعدادات والتصنيف المنهجي؛ كما تقنيات التجميع ومقارنة النتائج التي أنشئت قام وتحسين؛ كذلك الدفع الدائم لعالم يتكون متحرراً تدريجاً من النظام القديم من خلال الانتفاضات الثورية لعام 1848، ونموذج المجتمع الديموقراطي الناشىء في الجهة المقابلة من الأطلسي، وتنظيم الثورة العمالية واتخاذها طابعاً أممياً، كل هذا يضع مقدمات التفكير حول الحداثة التي ستخترق لاحقاً كل علم الاجتماع.

غير أن هذه المعرفة للاجتماع تعاني ضعفاً ابستمولوجيًا أساسيًا، فعلاقة الأفكار بالوقائع تبقى غالباً خارجية متأرجحة بين الأحكام التقييمية المسبقة والتجميع العقلاني. فإذا وجدنا بالأخص عند ماركس أو توكڤيل تحليلات هامة راسمة مسبقاً العمل المعرفي لعلم الاجتماع اللاحق، إلاّ أنها لم توضع في خدمة مشروع تأسيس مجال علمي جديد يهدف إلى تحديدٍ ناقدٍ لموضوعه وطريقته.

إلاّ أننا نشاهد بالتحديد هذه العملية التأسيسيّة تحدث في العقد الأخير من القرن: فمن خلال التفكير حول موضوع العلوم الاجتماعيّة وحول طبيعيّة القوانين التي يمكن أن تنتجها، ومن خلال إعداد أبحاث نموذجيّة، يقوم مجال جديد: هو علم الاجتماع.

ماذا نقصد بتأسيس من هذا النوع؟ لا يمكن أن يكون الأمر فقط مجرد فعل أو سلسلة أفعال فكريّة أو تعريفاً وإعداد أشكال جديدة لنشاط معرفي؛ بل بشكل أعمق يتحقق، في هذه الفترة، نوع من الاتحاد والتبلور لعناصر مختلفة تسمح

بمجموعها ببناء حقل جديد للبحث وقيام إطار أپستمولوجي وتأسيس مجال علم.

ثلاث مجموعات من العناصر تدخل في هذه الكيمياء المميزة:

أ ـ نوع من التطهير لإشكالية القديم والحديث يعزز تركز نهائي لأشكال جديدة للانتاج الاقتصادي والتنظيم الحكومي: فقيام الدولة الألمانيّة بعد 1870 والتشريع الاجتماعي الذي أصدره بسمارك والتنظيم القوي للإشتراكيّة الديمقراطيّة والنقاشات بين الماركسيّة والتحريفيّة في داخلها توضح بشكل جيد هذه الحقبة الجديدة حيث تبنى الدولة الحديثة بمواجهة التقليديّة الإكليركيّة «والثوريّة» العماليّة. فالعلاقات الاجتماعيّة الخاصة بالمجتمع الصناعي والبورجوازي تظهر أكثر وضوحاً من الفترة السابقة، وتدفع لظهور أكبر البناءات الأولى النظريّة لعلم الاجتماع الناشىء: التعارضات بين «المجموعة» و«المجتمع»[1] لفيردينان تونيز Ferdinand Tönnies وبين «التضامن الميكانيكي» و«**التضامن العضوي**» لإميل دوركايم[2] Emile Durkheim.

ب ـ تغيير في العمق في الحقل العلمي. فمع وجود الجامعات وتطور المكتبات الكبرى وإنشاء المختبرات سجلت الحقبة التي تلت عام 1870 طوراً حاسماً في تأسيس العلم الحديث، فهو كان يسير جنباً إلى جنب مع سيطرة العلم الاختباري الذي أصاب أخيراً علوم الإنسان. ففي ألمانيا أولاً، ثم أنكلترا والولايات المتحدة وفرنسا ظهرت مختبرات علم النفس التجريبي حيث يختبر نمط جديد من إنتاج ومعالجة الوقائع السيكولوجيّة. ولكن تطور العلم الوضعي هذا لا يغذي فقط الإيمان العلماوي عند البعض، بل يجعل أيضاًممكناً، خصوصاً في الفيزياء، القواعد الاختباريّة التي مع اكتشاف أشعة إكس والإشعاعيّة والجزئيّات الضوئيّة قلبت العلم الحديث وقضت على حقائقه القديمة. عند نهاية القرن نشأت نظرة جديدة إلى العلم أعادت، إزاء التعبد الوضعي للواقعة، القيمة الأساسية للنظرية.

(1) F. Tönnies, Communauté et société, 1887, trad. Paris, PUF, 1944.

(2) E. Durkheim, De la division du travail social, 1893, Paris, PUF, 1978.

ج - نشوء علم الاجتماع كمجال علمي. حتى آخر عقد من القرن ظلت معرفة الاجتماع متوقفة على ما نسميه اليوم «الهواة»: ڤيلليرميه Villermé كان طبيباً، توكڤيل قاضياً، ماركس صحافياً، إنغلز وبوث رَبّي عمل، لو پلاي، سپنسر مهندسين، كونت عالم رياضيات. . . فالأوساط المنظمة التي كانت أحياناً تؤيدهم لم تكن مبنية على قاعدة علمية بل إيديولوجيّة ونضاليّة. على العكس المرجعيّة العلميّة أصبحت مسيطرة بعد 1880. فظهرت المجلات العلميّة في كل بلد كبير حيث أصبحت المكان الذي يبنى فيه العلم الناشيء على أساس تبادل ومطابقة وإعداد قواعد[1]؛ فتأسّست جمعيات، الجمعية الأميركيّة لعلم الاجتماع، أميركان سوسيولوجيكال سوسايتي L'American Sosiological Society (1895) في الولايات المتحدة، الجمعية البلجيكيّة لعلم الاجتماع في بروكسل (1900)، جمعية علم الاجتماع في لندن (1903)، في ألمانيا: الجمعية الألمانية لعلم الاجتماع La Deutsche Gesellschaft Für Sociologie (1909). وأخيراً ظهرت المنابر الأولى مانحة للمجال الجديد القاعدة الجامعيّة الضروريّة للاعتراف به وتشريعه. ولكن هذه الحركة الأخيرة ما زالت عابرة: فرغم أن آلبيون ڤ. سمول Albion W. Smoll أسس عام (1893) أول فرع لعلم الاجتماع في جامعة شيكاغو ودوركايم Durkheim عُين في بوردو عام (1887) محاضراً في العلوم الاجتماعيّة، إلاّ أنّ المنابر ظلت قليلة وكان علينا انتظار عام (1907) لنرى ظهور منبر في انكلترا وعام (1914)ظهور منبر في ألمانيا عندما عين جورج سيمّل George Simmel في مركز الفلسفة وعلم الاجتماع في جامعة ستراستبورغ.

---

(1) وهكذا تظهر: Le Vierteljahrsschrift für Wissenschaftliche philosophie, und Sociologie (1877), La revue internationale de Sociologie (1893), Les Annales de l'Institut des Sciences sociales (Bruxelles 1895), L'American Journal of Sociology (1895), La Rivista italiana di Sociologia (1897), L'Année sociologique (1898). Les Annales de Sociologie (Société Belge de Sociologie, 1900), les Sociological papers (sociological Society 1904), les Archiv für sozialwissenschaft und Sozial politik (1904), La Sociological Review (Londres 1908). . . سابقاً وحواليها ساهمت مجلات أكثر اتساعاً أيضاً في تركيز مكانة علم الاجتماع، مثل المجلة الفلسفيّة حيث نشر دوركايم النص الأول لقواعد المنهج في علم الاجتماع وحيث ستظهر مقالات لتارد وسپنسر وسيمل الخ. . .

إنّ هذا التركز الأول والحاسم لعلم الاجتماع يدشن في الوقت نفسه إحدى أكثر خصائصه الأبستمولوجيّة أهميّة:

فرغم التوحد في تسمية العلم إلاّ أنّه لم يظهر كعلم وحدوي بل كنمط تعددي من المعرفة، ينتمي منذ نشأته إلى مدارس متعددة: المدرسة الفرنسيّة والمدرسة الألمانيّة لعلم الاجتماع. ماذا يخفي هذا التعارض؟ هل هو انعكاس الفوارق القوميّة الشديدة القوة في تلك الحقبة على مجال علمي؟ أم هو بشكل أعمق وبدفع تقليد وإطار ثقافي مختلف إعداد نموذجي من المقاربة، «نمطين من الإدارك» يبني العلم بواسطتهما فهم موضوعه[1].

أولاً. ـ المدرسة الفرنسية لعلم الاجتماع

1 ـ في سنوات (1930) كان يجري التعبير عن علم الاجتماع الفرنسي الناشىء بصورة أساسية في المجلة الفلسفيّة التي أسسها عام (1876) عالم نفس اختباري هو تيودور ريبو Théodore Ribot. لقد كانت هذه المجلة ذات الطاعة العمياء للوضعية تقبل مقالات متفرقة في الظاهر ولكن منتمية في الواقع إلى حقل يغطيه التعليم الجامعي للفلسفة التي لم يكن في الحقيقة قد تخلص منها بعد علم النفس أو علم الاجتماع. فباستثناء غبريال تارد Gabriel Tarde القاضي فقد كان معظم المؤلفين الذين تناولوا مواضوعات سوسيولوجيّة مدرّسين للفلسفة: ألفريد إسپيناس Alfred Espinas، ألفريد فوييه Alfred Fouillé، مارسيل برنيس Marcel Bernès.

إلاّ أن عناوين المقالات تشعر بالمجال العلمي الجديد: «نظرات تركيبيّة على علم الاجتماع»، لألفرد فوييه عام 1880؛ «الدراسات السوسيولوجيّة في فرنسا»، ولألفريد إسپيناس عام 1882؛ «حول الطريقة في علم الاجتماع» لمارسيل برنيس عام 1895. وأكثر فأكثر ومن مؤلف إلى مؤلف آخر حبك شبكة من المراجع المتقاطعة ومن المواجهة التي كانت حتى عندما تتحول إلى جدل تعبر عن حقل

(1) من أجل تفسير تفصيلي لإشكالية الإپستمولوجيّة المرافق لهذه التعابير، انظر L'intelligence du social, Paris, PUF. 1990. J.M. Berthelot.

مشترك من الاهتمامات تبقى تأملية: يتساءل ألفر فوييه A. Fouillée حول إمكانية توليف بين النظرة العضوية والنظرة التعاقديّة للمجتمع. وإذا دافع ألفريد إسپيناس A. Espinas برده عليه عن علم اختباري حيث «بدلاً من أن يختصر بمجمله بمجلدات صغيرة واضحة وهندسيّة صالحة للدعاية (. . .) فهو يبدأ بمراكمة هائلة للملفات والمجموعات والجداول والخرائط والرسوم البيانيّة التي عليه أن يتسكع طويلاً فيها قبل أن يتوصل إلى وحدته النهائيّة»[1]، فهو لا يذهب في هذا الطريق إلى أبعد من سپنسر الذي يذكره على كل حال كمثل.

وهكذا نتصور إذن أنه من الضروري حقاً التحدث عن قطع إپستمولوجي لوصف ما قدمه دوركايم. بالطبع إن قطعاً من هذا النوع ليس خالياً من التواصل بل من المستغرب أن يبرز مستقلاً عن الحقل الذي جعله ممكناً، ولكن يدل هذا القطع على التركز النظري والعملي لقاعدة إپستمولوجيّة جديدة تلزم النشاط العلمي بطريقة لا رجوع فيها.

2 ـ إن أهمية إميل دوركايم (1917 - 1858) Emile Durkheim في بناء علم الاجتماع الفرنسي كانت كبيرة بحيث أنه طمس وجود التيارات الأخرى وأخفى الاختلافات الهامة التي ظهرت بين المقربين منه، وإذا تمكن اليوم النقد التاريخي من إحياء الوقائع وتفكيك تفاصيل استراتيجيّة البناء التأسيسي الذي وضعه دوركايم فمما لا شك فيه أنه بتلاحم شديد بين المشروع العلمي والمشروع المؤسسي عرف كيف يبني ويدعم حقلاً علمياً حقيقيّاً.

لقد ظهرت مع دوركايم في التقليد الفرنسي صورة جديدة لعالم الاجتماع: صورة أستاذ دار المعلمين، الفيلسوف، مدير المدرسة، القلِق من أجل الوحدة الداخلية والعقلانية بين الأفكار والوقائع. إن مزايدات فكر استنتاجي محض مرفوضة كما ترفض إغراءات التجريبيّة التافهة. فالمقتضيات الملحة لبناء صارم للموضوع ولإخضاع النظريات إلى أوامر الاختبار تمرّ في كل أعمال دوركايم وتشكل القاعدة لإلتزام نضالي من نوع جديد مخصص لتكوين علم الاجتماع كعلم.

---

(1) الدراسات السوسيولوجيّة في فرنسا، المجلة الفلسفيّة، T. XIV تشرين الأول/أكتوبر 1882، ص. 337 ـ 367.

فرغم أن دوركايم لم ينشر سوى أربعة أعمال[1]، إلاَّ أنه ترك مجموعة كاملة من المقالات، أو الملاحظات على القراءات، والمحاضرات[2] التي تشهد على نشاط يطال كل المجالات الكبرى في الاجتماع: تقسيم العمل وأشكال التضامن، التربية، الاقتصاد، الحقوق، الأخلاق والدين. لقد أكثر في كل هذه الحقول من الدراسات الملموسة والتحليلات[3].

ولكن يكمن ما هو أساسي من حيث بناء السوسيولوجيا في نقطتين: فمن جهة في المشروع المطروح بتصميم ومنهجية على إدراج السوسيولوجيا ضمن العقلانية الاختبارية؛ ومن جهة ثانية في النشاط العنيد في تجميع وبناء جو من البحث والتفكير حول هذا المشروع.

«ليس لعلم الاجتماع أن يكون طرفاً بين الفرضيات الكبرى التي تقسم الميتافيزيكيين. كل ما يطلب أن يُمنح له هو أن يطبق مبدأ السببية على الظواهر الاجتماعيّة. خاصة أنه يطرح هذا المبدأ ليس كضرورة عقلانيّة ولكن كاستقراء مبرّر. فبما أن قانون السببية قد تحقق في العوالم الأخرى من الطبيعة وامتد نفوذه تدريجاً إلى العالم الفيزيكي والكيميائي ومنه إلى العالم السيكولوجي فلنا الحق بالتسليم بأنه يصلح كذلك للعالم الاجتماعي»[4].

إن كتاب قواعد المنهج في علم الاجتماع يحقق عملاً تأسيسياً إبستمولوجياً يرتكز على تطبيق قانون السببية المتحقق في المجالات الأخرى من الواقع على حقل الظواهر الاجتماعيّة. هل هذا التطبيق هو شرعي؟ هل يمكن للظواهر

---

(1) De la division du travail social 1893, Les règles de la méthode sociologique 1895, Le suicide 1897, Les formes élémentaires de la vie religieuse 1912.

(2) نشرت هذه فيما بعد بشكل مؤلفات مستقلة لمحاضرات كبيرة مثل L'évolution pédagogique en France, Paris, PUF, 1969. أو بشكل مجموعات: Le Journal sociologique (éd. J. Duvignaud), Paris, PUF, 1969; La science sociale et l'action (éd. J. C. Filloux), Paris, PUF, 1970; Les Textes, t. I, II et III (éd. V. Karady), Paris, Ed de Minuit, 1975.

(3) إن اطلاعاً شبه كامل على أعمال دوركايم وقائمة مراجع أساسية يمكن أن نجدها في كتاب ج. أ. براديس J. A. Pradès, Durkheim, Paris, PUF, coll. «Que sais - je?» 1990.

(4) Les règles de la méthode sociologique, Conclusion.

الاجتماعيّة أن تخضع له؟ وحسب أية أشكال، لقد أسس دوركايم برده على هذه الأسئلة المتنوعة ما تسميه الإبستمولوجيا المعاصرة «برنامج بحث»، أي: كلاً متماسكاً ومنفتحاً من المسلمات والإجراءات.

تثبت نصوص كتاب القواعد[1] في الدرجة الأولى خصوصية واستقلاليّة الاجتماع كحقل للمعرفة: لا يمكن اختصار الظواهر الاجتماعيّة بالأفكار أو التصورات أو المشاعر. إنها خارج الإفراد، وتفرض عليهم، مهما بدت هذه الظواهر ذاتية بصورة مباشرة وهي في الحقيقة مظلمة. إن الإلفة التي نراها في هذه الظواهر هي مصدر تصورات مسبقة وأفكار خاطئة. لذلك، «إن القاعدة الأولى والأساسيّة، هي اعتبار الوقائع الاجتماعية كأشياء» (فصل 2).

إن هذه القاعدة التي غالباً ما أسيء فهمها والتي تعتبر شهادة ميلاد للوضعية في علم الاجتماع لا تطرح أية طبيعة خاصة للوقائع الاجتماعيّة. إنها تكتفي بتعريف المقاربة أو طريقة البحث. فعلى عالم الاجتماع أن يقف إزاء الظواهر الاجتماعيّة كالفيزيائي إزاء ظواهر الطبيعة:

«يجب علينا إذن اعتبار الظواهر الاجتماعيّة بحدّ ذاتها منفصلة عن الأشخاص الواعين الذين يتصورونها؛ يجب دراساتها من الخارج، كالأشياء الخارجية». (المرجع نفسه).

وهكذا في بناء موضوع عالم الاجتماع بعيداً عن كل مزايدة يجب إخضاعه للقواعد نفسها التي تخضع لها موضوعات العلوم الأخرى: تعطى الأولويّة للتحليل السببي على التحليل الوظيفي وللبناء الاختباري للقوانين؛ وبما أن علم الاجتماع لا يمكنه أن يستخدم الاختبار المباشر لكون الظواهر الاجتماعيّة غير قابلة للتجدد في المختبر فعليه أن يستخدم الاختبار غير المباشر، أي المقارنة. على ماذا ستجري المقارنات؟ إنها ستجري على التغيرات المتبادلة لمختلف العوامل المدروسة: فإذا

---

(1) لدراسة دقيقة لهذا النص في مستوياته المتعددة، انظر: J. M. Berthelot, Les règles de la méthode sociologique ou L'instauration du raisonnement experimental en sociologie, introduction à une nouvelle édition des Règles, Paris, Flammarion, Coll. «Champs» 1988, p. 8 - 67.

تغيرت ظاهرة B (مثلاً زيادة معدل الطلاق) بتغير ظاهرة A نفسه (مثلاً انخفاض عدد حالات العماد)[1] فهذا يعني أن بين A وB علاقة سببية مباشرة أو غير مباشرة، على علم الاجتماع أن يظهرها، وهكذا تكون قد فتحت الطريق من أجل إعداد قوانين سوسيولوجيّة حقيقيّة: «التلازم الثابت هو إذن بحدّ ذاته قانون مهما كانت حالة الظواهر التي بقيت خارج المقارنة» (فصل 6).

إن ما قدمه دوركايم رغم العداء العام الذي رافق صدور كتاب قواعد المنهج، ما كان ليكون ضئيلاً لو أنه اكتفى بهذا العمل التوضيحي والتطهيري على صعيد الابستمولوجيا. ولكن مع كتاب الانتحار برهن بشكل متزامن تقريباً، على مدى وصحة العقلانيّة الاختباريّة المطبقة على علم الاجتماع.

كان اختيار الموضوع بحدّ ذاته إثارة واضحة. أليس الانتحار هو الفعل الأكثر ذاتية والأقل اجتماعية حيث يكون الفرد وحده بمواجهة ضميره؟ إن مثل هذا الفعل كان بإمكانه أن يكون بسهولة حجة الذين كانوا في ذلك الوقت يرفضون باسم ألفرد احتمال وجود علم اجتماعي ويهاجمون برنامج دوركايم على غرار غبريال تارد Gabriel Tarde. ولكنه أصبح من هذه الزاوية بالذات الموضوع المفضّل لامتحان مسلمة خضوع الظواهر الاجتماعيّة لمبدأ السببية.

«الانتحار» هو أحد النصوص النموذجيّة في علم الاجتماع الحديث مهما كانت الحدود المتعلقة بالأدوات وبالسياق النظري للعصر فهو يشكل التطبيق الأولي والمثالي لنمط محدد في الوضوح الفكري: نمط التحليل السببي. سوف نتوقف عند نقطتين من أجل إبراز الجديد في مسار دوركايم:

- يبدأ دوركايم كتابه بتوسيع فكرتين. الأولى تتعلق بالانتقال من المعنى المبهم الملازم لكلمة انتحار إلى تعريف دقيق له؛ والثانية تتعلق بإبراز صحة المقاربة السوسيولوجيّة بواسطة الدراسة المفصلّة للوائح الانتحار التي توفرها الإحصاءات الرسميّة. يبدو أن العدد المطلق لحالات الانتحار هو ثابت بشكل

---

(1) هذا المثل اعتباطي وقد أعطيناه لتوضيح هذا التطور. فهو في الواقع يظهر ترابطاً بين عنصرين A وB، انطلاقاً منه يمكن بناء علاقة سببية كما سيكون الأمر بالنسبة إلى الانتحار.

ملحوظ في مجتمع معين. كما أنه يتغيّر على شكل قفزات في حالة الأزمات الاجتماعيّة. وإذا رحنا إلى أبعد من ذلك ووضعنا معدلات للانتحار نلاحظ أن هذه المعدلات الثابتة داخل المجتمع نفسه يمكنها أن تتغير بنسبة ثلاثة أضعاف من مجتمع إلى آخر! فبتحويل الانتحار إلى كمية محددة ظهرت له إذن خصائص متميزة لا يمكن تحويلها إلى مجرد مجموع لتصرفات صدفوية: فالمعطيات الإحصائيّة هنا لا تعود إيضاحات في خدمة أطروحة معينة وإنما المادة المشغولة التي تبنى منها في آن معاً الفرضيات والتحقق منها.

ـ إن التغيرات المتعددة لمعدلات الانتحار ـ حسب البلد أو الدين أو الفصل أو الجنس أو الطائفة الدينية الخ. . . تسمح ببناء تفسيرات خاصة والخروج بواسطة هذه التفسيرات بنظرية معينة. ففي كل مرة يجب التساؤل حول التغير الملاحظ من أجل إبراز علاقة السببية التي يتضمنها. ينتحر البروتستانت أكثر من الكاثوليك. هل لأن عقيدتهم حول هذه النقطة هي أكثر تساهلاً؟ لا. ومستواهم العلمي أعلى من الكاثوليك. هل هنا يكمن السبب؟ لا، ويجب العودة إلى ما يميز بنيوياً البروتستانتية عن الكاثوليكيّة: فعند الكاثوليك تكون المعتقدات التقليديّة والتماسك قوية، وأما عند البروتستانت فإن التشجيع على التفكير الحر والفردية يضعفان هذا التماسك. يمكن البحث عن سبب العامل B (معدل انتحار أكثر ارتفاعاً) في العامل A (درجة اندماج أكثر انخفاضاً كتاب 2، فصل 2. فنقيم بهذا الشكل علاقة إذا تمت مقارنتها بعلاقات أخرى من النوع نفسه يمكنها أن تؤدي إلى تفسير عام: فالدراسة المفصلة للإحصاءات تكشف عن أن الرجال المتزوجين ينتحرون أقل بكثير من العازبين والأرامل (المرجع نفسه. فصل 3)؛ في المجتمعات السياسيّة ترتبط فترات الأزمة بانخفاض كبير بنسبة الانتحار وكأن الفورة والتعبئة اللتين تثيرهما هذه الفترات تحمي من الموت الإرادي (المرجع نفسه). في كل من هذه الحالات «يتغير الانتحار بعكس درجة اندماج الجماعات التي ينتمي إليها الفرد».

إننا إذن أمام نوع خاص من الانتحار يسميه دوركايم الانتحار الأناني كي يميزه عن الشكلين الآخرين اللذين تبرزهما الطريقة نفسها: الانتحار الغيري والانتحار التفكّكي.

يمكننا[1] أن نظهر بأن برنامجاً من هذا النوع لم يطبق على معطيات يتم التعبير عنها على شكل قياسات كمعدلات الانتحار فقط وإنما قرر دوركايم بصورة منهجية استخدامه ليس فقط لتبيان تاريخ مؤسسة وإنما أيضاً لكشف سر الطوطميّة. من هنا كان يصنع على صعيد معرفة الاجتماع قطعاً وتأسيساً في الوقت نفسه: قطعاً مع الأساليب السابقة في التجميع والتوضيح؛ تأسيساً بالتطبيق المنهجي لنمط معين من الإدراك. أما في المقابل فالفخ الذي كان من الصعب عليه جداً أن يتجنبه هو سجنه للمعرفة العلمية للاجتماع في البرنامج العلمي الذي صاغه على هذا النحو.

3 ـ مما لا شك فيه أن السوسيولوجيا الفرنسيّة قد ظلت حتى الحرب العالميّة الأولى خاضعة للدوركايميين. أما حركة لو پلاي Le Play فقد استمرّت على هامش الجامعة، بينما المدرسة التي كان باستطاعتها أن تكون المنافسة بزعامة رينيه وورمز R. Worms وغبريال تارد G. Tarde فقدظلت شديدة التعثر بين العضوانيّة والانتقائيّة. وبالرغم من النشاط المؤسسي الذي قام به وورمز[2] إلاّ أن الدوركايميين هم الذين سيطروا بدون منازع على علم الاجتماع الفرنسي[3]. ومن المؤكد أن تجذّرهم في الجامعة الذي حرص عليه دوركايم بصورة خاصة يشكل عنصراً مفسراً لهذا التفوق. ولكن أليس هناك مبالغة في تقييم هذا التجذّر، حيث إنه اقتصرت المحاضرات عام 1914 على عشرٍ، أربع منها فقط في الجامعة[4]. لا شك أن الأهم من ذلك هو قوّة البرنامج الذي تحقق بواسطة «السنة السوسيولوجيّة». فمن عام 1898 وحتى عام 1913 ظهر اثنا عشر مجلداً عرض فيها بصورة منهجية نتاج العلوم الاجتماعيّة لتلك الحقبة. فدوركايم نفسه نشر فيها أكثر

---

(1) Voir J. - M. Berthelot, Principe de causalité et raisonnement expérimental chez Durkheim, in Revue philosophique, t. CLXXIX, 1989, n° 1, p. 25 - 50.

(2) رينيه وورمز R. Worms هو المؤسس والبادىء للمجلة الدولية لعلم الاجتماع (1893)، وللمعهد الدولي لعلم الاجتماع (1894)، وللمكتبة الدولية لعلم الاجتماع 1894 ولجمعية باريس لعلم الاجتماع (1895).

(3) تأسيس واستقبال علم الاجتماع الدوركايمي ثم تحليلهما بمنهجية ودقة في مقال: V. Karady, Durkheim, les sciences sociales et l'université: Bilan d'un demi - échec, Revue française de Sociologie, Vol XVII, n° 2, 1976, p. 267 - 312.

(4) V. Karady, art. cit., p. 281.

من 300 تقرير. أما الفريق المكون لهذا الغرض فلم يكن يرتبط بأية تبعية عقائدية وعلاقات العمل داخله كانت تجري بمعظمها بواسطة الرسائل. ولكن رغم الفوارق وأحياناً الأزمات فأن وحدة مميزة في اللهجة كانت سائدة قد تكون معزوّة إلى شخصية دوركايم، وتجانس مكان اختيار المعاونين (دار المعلمين العليا)(1) وكذلك أيضاً بلا شك إلى طبيعة برنامج دوركايم التي هي ليست عقائدية بل علمية بكل معنى الكلمة.

ثانياً. ـ المدرسة الألمانية في علم الاجتماع

1 ـ إن إحدى الفِكَر المؤسسة للتقليد الفكري الفرنسي هي فكرة ضرورة إدارج السوسيولوجيا في حقل العلم. فسواء تحققت هذه بواسطة تصنيف عقلاني أنجز تحت رعاية الوضعية أو بواسطة إعادة تشكل داخلية ناتجة عن تطبيق برنامج العقلنة الاختباريّة، فإن المسلمة الإبستمولوجيّة الأساسيّة هي نفسها: العلم واحد مهما كانت مجالات تحققه.

أما فكرة أحاديّة العلم الموضوعة على شكل علوم الطبيعة فستعرف في البلدان الجرمانيّة مصيراً غريباً. فحتى لو تأسست حلقات وضعية في النصف الثاني من القرن وبنيت الوضعية الجديدة في فيينا في سنوات 1930 إلاً أن المفهوم المهيمن على التقليد الألماني هو الازدواجيّة بصورة أساسية: فهو يعارض علوم الطبيعة **Naturwissenshaften** بعلوم الفكر **Geisteswissenschaften**.

يستقي هذا التعارض جذوره من مصادر متعددة: التمييز الذي وضعه كانت Kant بين مجال الطبيعة (الذي يحكمه الفكر المحض) ومجال الفعل الإنساني (الذي يحكمه الفكر العملي)؛ النقد الهيغلي للفكر التحليلي (التوافق) لمصلحة الفكر الجدلي؛ أهمية الحركة الرومنطيقية ورفضها لفلسفة الأنوار. فكانت نتيجة هذا التعارض بشكل خاص تأخيرَ تكون علم اجتماع مستقل:

---

(1) Sur tous ces points, voir l'article de P. Besnard, La formation de l'équipe de l'Année sociologique, Revue française de Sociologie, vol XX, n°1, 1979, p. 7 - 32.

«إن الموقع المتوفق الذي تحتله المثالية والرومنسيّة في تاريخ الفكر الألماني عمل بشدة وطويلاً بصرف النظر عن الظروف الاجتماعيّة والسياسيّة على منع تكون علم اجتماع مستقل وكان مسؤولاً عن كون مشاكله الخاصة به عالجتها علوم أخرى»[1].

بالفعل، كان يجب أن ننتظر سنوات 1880 كي نشهد ظهور كلمة علم اجتماع (سوسيولوجيا) في ألمانيا. ولكن هذا التأخر الذي تجلى أيضاً في مؤسسية متأخرة كذلك (تأسّس المنبر الجامعي الأول لعلم الاجتماع عام 1914، أنظر أعلاه لا يعني جهلاً: فمجلة Vierteljahresschrift für wissenchafliche philosophie und Soziologie، التي تأسست عام 1887 عرضت كتابات لكونت وسبنسر وميل. كذلك سمح هذا التأخر لعلم الاجتماع الألماني بالاستفادة من الحركة الفكرية القوية التي كانت تحرك جامعات ما وراء الران.

بدءاً من عام 1883 عبّأ نقاش كامل، «شجار الطرائق»، حول طبيعة العلم، الاقتصاديين والفلاسفة وعلماء الاجتماع وانتهى بتعارض شديد ليس فقط بين علوم الفكر وعلوم الطبيعة بل بين «التفهم» والتفسير في تحليل الظواهر الاجتماعيّة[2]. يتبين أن هذا السياق من التساؤل والصخب الإيستمولوجيين سمح أخيراً ببروز المجال العلمي الذي مع جورج سيمل Georg Simmel وماكس ڤيبر Max weber وضع أسس علم إجتماع الفهم.

2 ـ لا يمكن التحدث عن مدرسة علم اجتماع ألمانيّة بمعنى المدرسة الفرنسيّة نفسه. فعلم الاجتماع الألماني في بداية القرن هو في الوقت نفسه أقلّ تأثراً بشخصيّة مهيمنة مما هي المدرسة الفرنسيّة، وكذلك أقل تشتتاً منها: فتأسيس الجمعية الألمانيّة لعلم الاجتماع Deutsche Gesellschaft für Soziologie عام

---

(1) H. Mauss, Handbuch der Soziologie, 1956, trad. anglaise, A short history of sociology, Londres, Routledge & Kegan Paul, 1962, p. 23.

(2) الفلاسفة (ديلتي W. Dilty، وڤيندلباند W. Windelband، وريكير H. Rickert) لعبوا دوراً حاسماً في إعداد هذا التمييز (cf. R. Aron, Essai sur une théorie allemande de l'histoire, La philosophie critique, Paris, Vrin, 1938).

1903 وتنظيم حلقات دراسة تحت رعايتها شكّلا قطب ذلك العصر تجمع وتبادل كان سيمّل وحده يحتقره بعض الشيء[1] إلاّ أنه من الواضح حتى لو تغيرت الشهرة مع الزمن فمنذ ذلك العصر اعتبر فردينان تونيس Ferdinand Tönnies وماكس ڤيبر كمؤسسين. لقد لعب تونيس دوراً أساسياً كأول رئيس للجمعية الألمانية لعلم الاجتماع Deutsche Gesellschaft für Soziologie ومؤلف لأول وأكبر كتاب عن علم الاجتماع الألماني عام 1889 الكتاب المشهور «الجماعة والمجتمع» Communauté et Société. إن طول حياته المميّز (1855 ـ 1936) سمح له بالمشاركة في الأيام السبعة السوسيولوجيّة التي نظمتها الجمعية الألمانية لعلم الاجتماع في عام 1910 حتى عام 1930. غير أن دوره في بناء علم الاجتماع لم يضاهِ دور سيمل ولا خاصة دور ڤيبر.

لقد احتل ماكس ڤيبر (1864 ـ 1920) في هذا المجال مركزاً حاسماً. فهو على غرار دوركايم عرف كيف يؤسس بصورة إپستمولوجيّة بقدر ما عرف كيف يختبر عملياً قواعد برنامج الدراسة العلميّة للظواهر الاجتماعية. ولكن على عكس المدرسة الفرنسيّة اعتبر أن العمل السوسيولوجي بصورة خاصة يبدأ عندما تتوقف إمكانيات التفسير بالانتظامات السببية.

لم يشغل ماكس ڤيبر الحقوقي في تخصصه وأستاذ الاقتصاد السياسي في فريبورخ ومن ثم في هيدلبرغ، إلاّ في الشهور الأخيرة من حياته منبراً لعلم الاجتماع في جامعة ميونيخ. لقد خصص جزءاً كبيراً من وقته للتفكير الإپستمولوجي حول العلوم الاجتماعية ثم في نهاية حياته حول علم الاجتماع.

«نسمي سوسيولوجيا (بالمعنى الذي يستخدم به هنا هذا التعبير بالتباس كبير) العلم الذي يقصد فهم النشاط الاجتماعي بواسطة الشرح ومن ثم التفسير السببي لمساره ونتائجه. ونقصد «بالنشاط» السلوك الإنساني (ليس من المهم أن يتعلق الأمر بفعل خارجي أو ذاتي، بإهمال أمر أو بتسامح) عندما وبقدر ما يعطيه

---

(1) CF. La liste des participations aux Soziologentagen "journées sociologiques" établie par D. käsler, Die frühe deutsche soziologie 1909 bis 1934, und ihre Entstehungs - Milieus, Düsseldorf, Westdeutscher verlag 1984, p. 603 et sq.

الفاعل أو الفاعلون معنى ذاتياً. ونقصد «بالنشاط الاجتماعي»، النشاط المتعلق بتصرف الآخر الذي يتوجه إليه مسار النشاط وذلك بحسب المعنى الذي يقصده الفاعل أو الفاعلون»[1].

بهذا التعريف يستهل ڤيبر الفصل المخصص «للمفاهيم الأساسية لعلم الاجتماع» الذي يبدأ به كتابه الرئيسي في علم الاجتماع. إن لهذه السطور بما تختصر وبما تتضمن من الأهميّة في بناء علم الاجتماع ما للقاعدة الشهيرة لدوركايم المذكورة آنفاً. فهي تحدد في الوقت نفسه الموضوع والطريقة: الأول: هو النشاط الاجتماعي والثانية: هي الفهم.

فحيثما يتكلم دوركايم عن «وقائع اجتماعيّة» يتكلّم ڤيبر عن «نشاط اجتماعي». ماذا ينتج عن هذا التمييز؟ ينتج عن ذلك تطبيق وجهة نظر وطريقة مقارنة مختلفتين جذرياً، فڤيبر يختار كموضوع لعلم الاجتماع التصرفات ذات المعنى والموجهة نحو الآخر فقط.

هذا التعريف التضييقي يسقط بعض التصرفات التي في الظاهر يمكن أن ينطوي عليها علم الاجتماع: كالتأمل، والصلاة الفردية، واصطدام سائقي دراجات، وفتح المظلات في جمع حاشد في الوقت الذي يبدأ فيه المطر بالهبوط... هذه الأمثلة التي تناولها ڤيبر فيما بعد تظهر غياب المعيار الأول أو الثاني. كما تسمح خاصة بتحديد معنى بناء الموضوع الناتج عن وضعهما موضع التطبيق:

«فالاصطدام بين سائقي دراجات مثلاً هو مجرد حدث كأي ظاهرة طبيعيّة. قد تكون محاولة تجنب الآخر والشتائم أو الشجار أو الاتفاق الحبّي الذي يلي الاصطدام هو «نشاط اجتماعي».

إن مجرد الاصطدام هو ظاهرة فيزيكيّة. فسواء تدخلت أجسام طبيعيّة أو منتجات الصناعة البشرية فهذا لا يغير في شيء طبيعة الحدث. فيكفي تطبيق قوانين الميكانيك كي نفهم ذلك: فباستخدام هذه الطريقة نفسر سببياً الواقعة. على العكس

(1) Max Weber, Economie et société, 1920, trad. Paris, Plon, 1971, p. 4.

من ذلك فإن الشتائم والشجار، والاتفاق الحبّي هي تصرفات ذات معنى بالنسبة إلى الفاعلين في هذا الموقف. هذه التصرفات لا يمكن استنتاجها من قوانين عامة، أو تحويلها إلى علاقات سبب بنتيجة، بل إنها تعبر عن قصد واع: لكي نعرفه يجب أن نفهمها. فبقدر ما لا يمكن تحويل النشاط الإنساني إلى علاقات سبب بنتيجة بل بقدر ما يعبر عن قصد الفاعلين وهو المعنى الذي يعطونه لفعلهم، فهو يتطلب طريقة أخرى غير تلك المستخدمة في علوم الطبيعة، إنها بالتحديد طريقة الفهم بواسطة التفسير. وهكذا يصبح بناء الموضوع، وتحديد الطريقة مترابطين في الداخل.

ما هي الآفاق التي تقدمها نظرة من هذا النوع لعلم الاجتماع؟ يمكن على الأقل استخلاص أربعة من الفصل الذي جرى ذكره:

ـ تحديد ما يجب فهمه «بالمعنى». إن ڤيبر يحدده «كالمعنى المستهدف ذاتياً»، ويعطيه ثلاثة أشكال: المعنى بالنسبة إلى فاعل معين في وضعية معينة؛ أو المعنى بالمتوسط بالنسبة إلى مجموعة محددة؛ أو أخيراً بشكل مثالي، عند إعادة بناء عقلانيّة لاستخدام استكشافي وهو ما يسميه ڤيبر «النموذج المثالي».

ـ تصنيف لمختلف المعاني التي يمكن أن يتخذها الفعل، استناداً إلى محدداته. ميز ڤيبر بين أربعة أنواع مختلفة من المنطق: الفعل «العقلاني في هدفه» (يعطي الأهميّة للأهداف المتوخاة ويخضع لها كل العناصر الأخرى على اعتبار أنها الوسائل)؛ الفعل «العقلاني في القيمة» (يخضع الوسائل والغايات إلى قاعدة موضوعة كقيمة داخلية)؛ الفعل الذي تحدده المؤثرات والانفعالات؛ وأخيراً الفعل المرتبط بالتقليد[1].

ـ نظرة إسميّة للمجموعات الاجتماعيّة والمؤسسات: فإذا كان علم الاجتماع هو علم النشاط الاجتماعي فهذا النشاط لا يمكن إلاّ أن يكون فريداً. فمجازاً واستسهالاً يعطى نشاط خاص للكيانات الجماعيّة كالدولة، والطبقات الاجتماعيّة،

(1) هذه الأنواع من المنطق لا يمنع الواحد منها الآخر، فهي تشكل النموذج الخالص، «النموذج المثالي» الذي يمكن أن نرجع إليه عمل ملاحظ بصورة تجريبية من أجل فهمه.

والمنشآت. يجب العودة، في الواقع إلى «الأشخاص الفريدين» الذين هم وحدهم الفاعلون القادرون على فهم النشاط الموجّه بمغزى».

ـ مفهوم معقد للقوانين التي يمكن أن يضعها علم الاجتماع. قابل ڤيبر في بحثه عام 1904 بين نموذج سببي واستقرائي لعلوم الطبيعة والمشكلة الأساسيّة للعلوم الاجتماعيّة:

«كيف يمكن للتفسير السببي لواقع خاص أن يصبح صالحاً بصورة عامة؟ ـ مع العلم أنه حتى الوصف لأصغر جزء من الحقيقة لا يمكن أبداً تصوره بصورة شاملة؟»[1].

فيستنتج أن القوانين في علوم الطبيعة تلعب دوراً مختلفاً جذرياً عنه في علوم العالم الاجتماعي؛ فتنتقل القوانين من هدف للمشروع المعرفي لتصبح بمنزلة مجرد وسيلة تسمح ببناء «الارتباطات السببية الملموسة» مشكّلة فرادة تاريخيّة يعزلها العالِم كموضوع له بسبب القيمة والدلالة الثقافيّة التي يراها فيها.

يدخل ڤيبر في النص الذي ندرسه فكرة المقياس المزدوج لتحديد قانون سوسيولوجي: المطابقة السببية ـ ويجب أن تتأكد بانتظامات إحصائيّة ـ والمطابقة في الدلالة ـ يجب أن تعبر عن تصرف ذي معنى ذاتي بالنسبة إلى الفاعلين، أي يمكن فهمه حسب إحدى قواعد المنطق الموضوعة آنفاً. فتأخذ مقدمة المقطع المذكور في الأعلى كل مغزاها: إن علم الاجتماع يقصد الفهم «بالشرح (. . .) ومن هنا التفسير بالسبب». فڤيبر لا يرفض لا فكرة القانون ولا فكرة التفسير السببي؛ فهو يخضع الواحدة كما الأخرى للعمل الخاص بالفهم.

نحن هنا في الظاهر أمام ما سبق وأسميناه آنفاً بالبرنامج العلمي. كما أنه من الضرورة بمكان أن نراه يُستخدم، فعلى عكس برنامج دوركايم إن إجراءات التحليل المحسوس لموضوع معين لا تسمح بأن نستخلصها من مجرد حساب بسيط كما كانت عليه الحال بالنسبة إلى التغيرات المتلازمة.

---

(1) موضوعية المعرفة في العلوم وفي السياسة الاجتماعيّة، Trad. in Essais sur la théorie de la science, Paris, Plon, 1965, p. 162.

إن المؤلف المثالي لڤيبر حيث تُمتحن خصوبة وصلاحية المقاربة المطروحة هو بلا شك «الأخلاق البروتستانتيّة وروح الرأسمالية» الذي يمثل في التقليد السوسيولوجي مكانة مشابهة لمكانة الانتحار. فهو يندرج ضمن سلسلة من الدراسات المخصصة للعلاقات بين الأديان والنشاط الاقتصادي من أجل فهم خصوصية العقلانيّة الغربية التي يعبر عنها التطور الخاص الذي عرفته الرأسماليّة فيها.

ففي عصر ڤيبر كان معروفاً بصورة واسعة أن علاقات مميزة تربط بين الرأسماليّة الحديثة، والعالم البروتستانتي. فقد اعتبر ماركس وانجلز أن الإصلاح هو مظهر ونتيجة في المجال الإيديولوجي ـ الديني لتطور علاقات الانتاج الرأسماليّة الجديدة. ولقد هاجم ڤيبر هذا الطرح الذي هو سببي من زاوية معينة. إن الفائدة بالنسبة إلينا تكمن في المسار، في تماسكه مع الإبستمولوجيا المقدمة سابقاً.

فڤيبر يعمل على أربع مراحل:

ـ طرح المشكلة من خلال معطيات إحصائية تسمح بإقامة علاقة بين البروتستانتيّة والرأسماليّة.

ـ تحديد الموضوع ببناء النموذج المثالي للرأسماليّة الحديثة: روح الرأسماليّة.

ـ دراسة التبشير اللوثري، وإبراز التشابه الموجود بين روح الرأسماليّة الذي سبق وصفه والمفهوم المركزي للدعوة البروتستانتيّة.

ـ دراسة تاريخيّة لتطور الدين الذي جرى إصلاحه وبالأخص الانتقال من التقشف الديني إلى التقشف الاقتصادي وبالتالي إلى روح الرأسماليّة.

يبدو أن هذا العمل البرهاني قد توصل إلى عكس الطرح الماركسي فهذا ما اكتفى جزء من المعلّقين بالتوقف عنده[1]: إن روح الرأسماليّة سبقت في مجالات

(1) سيكون برهان ڤيبر في أساس نقاش شهير بدأ في عصره واستمر حتى أيامنا. راجع بهذا الخصوص P. Besnard, protestantisme et capitalisme, Paris, Armand Colin, 1970.

كثيرة تطورها المادي وهذا ما لا يمكن فهمه إلاً بوجود قوي للتقشف البروتستانتي. فلو تعلق الأمر بهذا فقط لما كان علينا سوى عكس العلاقة السببية بين البروتستانتيّة والرأسماليّة. إن الاسميّة المذكورة آنفاً تلغي كل عمل من هذا النوع والتعريف المقدم لعلم الاجتماع يفرض أن يكون موضوعه نشاطاً اجتماعياً. هل ڤيبر لعام 1904 هو على خلاف مع ڤيبر لعام 1920؟ بصرف النظر عن أن هذا قولاً يشكل فضيحة وأن الحالة الأخيرة لفكر ڤيبر هي الأكثر شحذاً، إلاً أنه ليس هناك شيء من هذا.

إن تحديد روح الرأسماليّة كما أيضاً تحديد الأخلاق البروتستانتيّة يعملان بالاستناد إلى بعض النصوص والوثائق على إبراز معنى نموذجي مثالي، أي معنى يبنيه الباحث من خلال مجموعة من الدلالات القادرة على التعبير على أفضل وجه عن الطبيعة المميزة لهذه الخصوصيات التاريخية أي البروتستانتية والرأسمالية الغربيّة.

ولكن هذا لا يكفي: فإذا كان للتشابهات بين النماذج المثالية من معنى بالنسبة أيضاً إلى الباحث وتقترح علاقات مميزة فكل تأثير من الواحد على الآخر يناقض المسلمة الاسميّة. إن عند هذا المستوى ڤيبر هو أقل وضوحاً، فبما أن الهدف الأساسي للكتاب هو بناء النموذجين المثاليين بشكل دقيق وإظهار أسبقيّة الواحد على الآخر، فهو لا يفصِّل الأطروحة التي يكتفي بتوضيحها بوقائع نموذجيّة: الانتقال من الأخلاق البروتستانتيّة إلى روح الرأسماليّة يمر عبر مسلك اقتصادي جديد، وعقلانية جديدة في عمل الفاعلين. البروتستانتيّة لم تخلق روح الرأسماليّة؛ لقد أعطت لعناصر اقتصادية فاعلة في مواجهتها لمشاكل اقتصادية المستند الإيديولوجي الذي يسمح بإدراج تصرّفها ضمن عقلانيّة جديدة. إن جوهر الرأسماليّة وهو الربح كعائدية لكل عنصر ولكل لحظة. يجد في التقشف البروتستانتي تبريراً وغذاءً له. فيظهر مسلك اقتصادي جديد إذن ويكفي أن يدخل قطاعاً اقتصادياً تقليدياً ـ كالنسيج المنزلي الذي يفصله ڤيبر كمثل ـ كي يثوّره دون أن تتأثر بنيته في مرحلة أولى. فالمسلك الفريد لأشخاص فريدين يبقى في نهاية التحليل العنصر التفسيري الأمثل.

3 ـ إن العقلانيّة الاختباريّة والطبيعانيّة تشكلان القاعدة التي بني عليها البرنامج الدوركايمي؛ والمعنى والنشاط الاجتماعي هما القاعدة لعلم الاجتماع الألماني. إن هذه الطريقة الثانية في التعرف إلى علم الاجتماع هي أكثر هشاشة من الأولى. فالفصل الذي قمنا بالتعليق عليه «الاقتصاد والمجتمع» يشكل محاولة مثالية في تركيب وتمفصل خطوط تحليليّة يمكنها أن تتباعد في مكان آخر.

إن خير مثل على هذه الهشاشة نجده بلا شك في كتاب جورج سيمل (1858ـ 1918) G. Simmel. يظهر هذا الكتاب المتنوع، والمتعدد، والمتنقّل على التوالي من الوضعية إلى الكانتية الجديدة ثم إلى الحياتية، والمتوجه أكثر نحو الفلسفة وكتابة المحاولات مما هو نحو علم الاجتماع، أنه يتلاعب بالحدود التي يقيمها العالم الجديد وبتراتبية المواضيع التي يؤسسها: فقد كتب سيمل حول «الثقافة النسائيّة» و«التأنّق»، «والموضة»، و«المَغامرة»[1] يمكن أن نتوقف في هذا المجموع الوفير الذي يجهد المعلّقون في اكتشاف وحدته[2] على ثلاثة نقاط تشكل في منظور بناء السوسيولوجيا تعديلاً أو تعميقاً للبرنامج الموصوف سابقاً:

ـ نقد للمعرفة في التاريخ يجري تحت رعاية الفلسفة الكانتية فيلتقي مع تحليلات ڤيبر حول رفض الطبيعانيّة والواقعيّة ويعمق المعنى المجرد للفهم[3].

ـ التركيز على مفهوم الشكل كالموضوع الوحيد الحقيقي لعلم الاجتماع، والواقع بين الخطر المضاعف من أن يتحول إلى حقائق نهائية يكونُها الأفراد أو أن يشمل بدون تخصص كلية الواقع السوسيولوجي التاريخي؛ فالشكل هو بناء من المعرفة[4].

---

(1) هذه المقالات يمكن الحصول عليها باللغة الفرنسية in G. Simmel, Philosophie de la modernité, Paris, Payot, 1989.

(2) انظر مثلاً إلى المقدمة الشديدة الإيحاء التي خص بها جوليان فروند Julien Freund مجموعة مقالات السوسيولوجيا والإبستمولوجيا، Paris, PUF, 1981, p. 7 - 79.

(3) إن العمل الحاسم لسيمل هنا هو «مشاكل فلسفة التاريخ»، 1907 ترجمه وقدم له ريمون بودون R. Boudon ـ باريس ـ المنشورات الجامعية 1984.

(4) إن مفهوم الشكل نجده في كل مراحل تفكير سيمل. نجد مقالات في مراحل مختلفة وبالأخص «كيف تتماسك الأشكال الاجتماعيّة (1896) و«مسائل أساسية في علم الاجتماع»، في مجموعة سوسيولوجيا وإبستمولوجيا المذكورة.

ـ التركيز على مفهوم الفعل المتبادل (Wechselwirkung) من أجل السماح بإحداث أشكال يمكن التعرف إليها.

«كل ما يتجلّى في الأفراد، الأمكنة المباشرة والمحسوسة لكل حقيقة تاريخيّة، على شكل اتجاهات، ومصالح، وميول مرهفة، وتوافق وحركيّة نفسانيّة، من خلالها أو حولها يمارسون تأثيراً على الآخر أو يخضعون لهذا التأثير، أعتبر كل هذا محتوى أو إلى حدّ ما مادة التنشئة الاجتماعيّة. هذه المواد التي تملأ الوجود، هذه الدوافع التي تحركه لا تشكل بحدّ ذاتها ولا لذاتها كائناً اجتماعياً. فلا الجوع أو الحب أو العمل أو الشفقة أو التقنية أو الوظائف أو نتائج الفكر تعني كذلك في معناها المباشر تنشئة اجتماعيّة معينة؛ على العكس إنها لا تشكل هذه العملية إلاّ بقدر ما تبني التجاور الإفرادي للأفراد بأشكال من الوجود المشترك والمتضامن التي تعود إلى المفهوم العام للفعل المتبادل»[1].

ثالثاً ـ علم الاجتماع عشية الحرب العالمية الأولى

لقد ولد علم الاجتماع الحديث خلال عشرين سنة. فمهما كانت انتماءاته إلى الفلسفة، ومهما كان تواطؤه معها، خاصة في ألمانيا فهو يتميز بشكل واضح عن الفلسفة السياسيّة أو الفلسفة الاجتماعيّة. فإذا اختار الوضعية المتينة للعقلانيّة الاختباريّة أو طريقة الفهم فهو يعمل على بناء حذر لموضوعه ويستخدم المعطيات الإحصائيّة أو التاريخيّة التي يتطلبها توضيح هذا الموضوع. وهكذا يكون قد أنشىء حقل إبستمولوجي جديد اكتسب، بفضل تأسيسه جامعياً وبفضل الجمعيات العلميّة ومجلاته ومجموعة مؤلفاته، حق الانتماء إلى الجماعة العلمية.

من البديهي أن العلم الجديد لا يقتصر على دوركايم أو ڤيبر أو سيمل، ولا على السوسيولوجيا الفرنسية والألمانيّة. إن وجهة النظر التي نتبناها تقتضي إبراز هؤلاء ليس فقط حسب المنطق التقليدي في تاريخ الأفكار إنما حسب منطق أكثر تجديداً هو بناء القالب العلمي. إن العلم لا يبنى فقط من خلال النتائج التي راكمها

(1) مسائل أساسية في علم الاجتماع in Sociologie et épistémologie op. cit, P. 121 - 122.

ولكن يبنى بالقدر نفسه من خلال القيم التي اختارها والأعمال التي يتخذها كمثال له والمجال الذي يحدده وأسلوب العمل الذي يشجعه وييسّره: فإذا أصبح علماء إجتماع كـ تارد G. Tarde أو رينيه وورمز R. Worms مهمّشين فهذا يعود بالدرجة الأولى، وبصرف النظر عن التعقيدات المؤسسية، إلى الاعتراف بهم لكونهم خارج هذا القالب فلقد استمروا بممارسة علم الاجتماع كما كان يجري في ثمانينات القرن الماضي (1880). على العكس إن العودة الدائمة إلى دوركايم وڤيبر وسيمل في النصوص السوسيولوجية يظهر برأينا هم المجال العلمي المهدد لتنوعه وتعدده في أن يطمئن ويتقوّى من خلال تفسير وتوضيح دعائمه.

إن السوسيولوجيا التي ولدت في مطلع القرن العشرين ما تزال تحمل آثار هذه الهشاشة. فهي لا تنطلق تحت رعاية الوِحدة بل الثنائية: فما هو نموذج للعلمية في فرنسا يظهر في ألمانيا متعارضاً مع مقتضيات المجال العلمي الذي موضوعه الحقائق التاريخيّة والثقافيّة بقدر ما هو متعارض مع إيستمولوجيا مدموغة بشكل قوي بالكانتية الجديدة. فكيف نفهم هذا التناقض؟

إن وزن التقاليد القومية هو تفسير حقيقي وهو في الوقت نفسه تفسير غير كافٍ. في الحقيقة إن علم الاجتماع يتطور في مختلف البلدان حسب الخطوط التي رسمتها العادات الفكريّة للأوساط التي تهتم بالمجال العلمي الجديد فيها: مثالية فلسفيّة في ألمانيا، وضعية في فرنسا، تجريبيّة وذرائعيّة في انكلترا والولايات المتحدة. ولكن في الوقت نفسه قد نكون مخطئين في الاعتقاد بأن علم الاجتماع الناشيء سيبقى أسير أطره القومية: فسرعان ما ربطت الاتصالات والترجمات مختلف التقاليد. فبدءاً من عام 1908 ترجمت في ألمانيا أعمال مؤلفين فرنسيين كدوركايم وتارد وفوييه ولوبون Le Bon في مجموعة «Philosophisch - Soziologische Bucherei»[1]؛ فقد توجه دوركايم ثم بوغْليه Bouglé إلى ألمانيا وحملوا إليها دراسات حول حالة العلوم الاجتماعية[2]، وقد ساهم دوركايم في

(1) Source H. Maus, A short history of sociology, op. cit., p. 75.

(2) E. Durkheim, La science positive de la morale en Allemagne, Revue philosophique, t. XXIV, n°2, 1887, reproduit in Textes, t. I, op. cit., p. 267 - 343; C. Bouglé, les sciences sociales en Allemagne, Paris, Alcan 1896.

التفكير حول العلاقات بين السوسيولوجيا والعلوم الاجتماعيّة الذي نظمته الجمعية السوسيولوجيّة La Sociological Society ونشر في الأوراق السوسيولوجيّة Les Sociological Papers عام 1904[1]؛ وترجمت مؤلفاته إلى الروسيّة منذ عام 1900[2]؛ كما أحصت «السنة السوسيولوجيّة» L'Année Sociologique بانتظام الإنتاج الإنكليزي والألماني في العلوم الاجتماعيّة؛ وقد نشر فيها سيمل G. Simmel مقالاً كما كتب في عدة مجلات فرنسيّة أخرى... وقد تتعدد الأمثلة التي تشهد على التضامن الجدلي في مجال علم الاجتماع الناشىء. ولكن يجب أن لا تخفي هذه الأمثلة حدود التضامن: إن ڤيبر ودوركايم لا يعرف أحدهما الآخر[3]؛ إذا كان مقال فوكونيه Fauconnet وموس Meuss في الموسوعة الكبرى تحت عنوان «علم الاجتماع» عام 1900 يستند في مراجعه إلى البلجيكيين دو غريف De Greef وڤاندرڤيلد Vandervelde وللألمان غومپلوڤيز Gumplowiz وتونيز Tönnies وستيمتز Steimmetz وللأميركيين وورد Ward، سمول Small، غيدنكز Giddings، فإن النص المقدم لا يبتعد عن الدوركايمية الخالصة؛ وفي مجموعة نشرت عام 1939 تحت إشراف سيلستان بوغليه Célestin Bouglé بعنوان عناصر علم الاجتماع Elements de Sociologie، تمّ اختيار 25 نصاً من أصل 170 لمؤلفين أجانب، بعضهم فقط علماء اجتماع: ڤيستر مارك Westermark، غيدنكز Giddings، ستينمتز Steinmetz[4].

ولكن في لعبة الانفتاح والتجاهل هذه فالذي يميز علمَى الاجتماع الألماني والفرنسي في بداية هذا القرن عن علمي الاجتماع الانكليزي أو الأميركي هو همهما الإپستمولوجي. فعلم الاجتماع ليس علماً مسلماً به. إنه يتطلب تفكيراً حول ركيزته وإجراءاته. ويفرض إحداث تماسك بين الموضوع والمعطيات. ولا شك أن التقاليد

---

(1) Source J. Rummey, La sociologie anglaise, in G. Gurvitch, La sociologie au XX^{e} siècle, t. 2, Paris, PUF, 1947, p. 569 - 591.

(2) K. Mänicke - Gyöngyösi, The reception of Durkheim in Russia and the Soviet Union, Etudes durkheimiennes, n° 10, Paris, Maison des sciences de l'Homme, 1984.

(3) حول المقدمة الصعبة لڤيبر في علم الاجتماع الفرنسي انظر: M. Hirschhorn, Max Weber et la sociologie française, Paris, L'Harmattan, 1988.

(4) C. Bouglé et J. Rafault, Elements de sociologie, Paris, Alcan, 1939.

والأطر القومية لعبت دوراً حاسماً في دفع وتوجيه هذا التفكير. ولكن حتى لو كان شكل وإطار إعداد البرامج الدوركايمية والڤيبيرية قوميين فإن محتواهما لم يعد كذلك، إنه يحدد أنماطاً من التفكير ونماذج مثالية تنتمي بصورة خاصة إلى المجال العلمي الذي لن يتوقف بعد الآن عن صقلها. فبالطريقة نفسها سيواصل علم الاجتماع اللاحق بناءه ويخدد مرتكزاً على ما تسمح ببروزه خصوصيات الإطار الاجتماعي والثقافي القومي: بعد العام 1914 سيبنى علم الاجتماع بصورة أساسية في الجهة المقابلة من الأطلسي.

الفصل الثالث

تطور علم الاجتماع التجريبي الحديث

أولاً ـ مرحلة النضج

إنه لأمر محرج اللجوء دائماً إلى التصنيف حسب المراحل. فالمؤرخون يعرفون جيداً هذه المشكلة: وعندهم اتجاه لجعل القرن التاسع عشر يبدأ عام 1789 وينتهي عام 1914. فنحن سنقترح الأطروحة القائلة بأن علم الاجتماع عرف مرحلة من النضج امتدت تقريباً من نهاية الحرب العالميّة الأولى حتى أواسط العقد الخامس. إن تقطيعاً بهذا الشكل هو اعتباطي. فيمكنه أن ينتهي في بعض الحالات بالجمع بين جيلين متتاليين. ولكنه يبدو بالنسبة لنا الأكثر ملاءمة من وجهة نظر بناء علم الاجتماع.

يمكننا إعطاء عدة عناصر داخلية أو خارجية لتبرير ذلك:

أ) عند بداية الحرب العالميّة الأولى كان علم الاجتماع قد تأسس. وفي المرحلة اللاحقة سوف يتطور: فمجلات جديدة ستظهر، في البلدان التي وجد فيها قديماً كما في أوروبا الوسطى أو في أميركا اللاتينيّة؛ إن التجذر الجامعي سيتقوى بطريقة شديدة التفاوت: فهو قوي في الولايات المتحدة، حيث فتحت عدة أقسام جامعيّة وفي ألمانيا حيث نشأ عدد كبير من محاضرات علم الاجتماع[1]، وعلى العكس بقي ضعيفاً في فرنسا وانكلترا، وذلك حتى أواسط الخمسينات[2]. ولكن

(1) Dirk Kösler, Die frühe deutsche Soziologie 1909 bis 1934, op. cit.، يحصي 40 منبراً جديداً لعلم الاجتماع بصورة مباشرة أو غير مباشرة بإضافة عنوان «علم اجتماع» وذلك في مؤسسات التعليم في ألمانيا من 1919 حتى 1933.p 626 ـ 628.

(2) عشية الحرب العالمية الثانية لم يكن هناك سوى خمسة منابر لعلم الاجتماع في فرنسا: واحد في الكولّيج دو فرانس collège de France (Marcel Mauss) اثنان في السوربون (Maurice Halbwachs =

إذا أدخل هذا التطور تجديداً على صعيد الطرق وأنماط المقاربة إلاّ أنه لم يخلق بعد الصفة الطاغية للمرحلة التالية وهي: تفريع ميادين البحث والتأكيد على استقلاليتها القوية. بالطبع أخذت بعض موضوعات الدراسة فرديتها ـ كالمدينة ـ العمل ـ التعايش بين الأقليات الإتنية، الجماعات الهامشيّة، الخ. إلاّ أن علم الاجتماع أبعد من أن ينحصر فيها فقد بقي على علاقة وثيقة بالميادين العلمية التي رافقت تطوره، وذلك حسب الأطر القومية: وهي الفلسفة، علوم الثقافة والحقوق في ألمانيا، الاتنولوجيا، والتاريخ في فرنسا، علم النفس الاجتماعي والانتروبولوجيا الثقافية في إنكلترا والولايات المتحدة.

ب) إن المرحلة الممتدة من الحرب العالميّة الأولى حتى أواسط الخمسينات تتميز بوحدة سياسية اجتماعيّة قوية. فهي مطبوعة بصعود التوتاليتاريّة الذي لا يقاوَم وباستخدام الرعب المباشر، كمخيمات النفي والإبادة ـ أو غير المباشر كالحرب الباردة والتوازن النووي ـ، كطريقة في العمل السياسي. هذا التحول العميق للسياق الاجتماعي والسياسي والتباساته ـ حيث إن ثورة أكتوبر ظهرت في البداية للكثير كمصدر للأمل كما ظهر الجيش الأحمر كقاهر للنازية ـ وإغراءاته ـ حيث إن حرب إسبانيا والمقاومة دفعت كثيراً من المفكرين إلى الخروج إلى الميدان ـ، هذه الالتباسات والإغراءات لم يتأثر بها علم الاجتماع فقط خارجياً. فهي ستكون سبب انقسامه وتكامله: الانقسام لأن الأمميّة الثالثة استخدمته كحقل نضال إيديولوجي وحقل مجابهة بين «علم البروليتاريا» و«علم البورجوازيّة»؛ التكامل بسبب الهجرة القسرية للمفكرين الأوروبيّين الذين استقبلتهم بمعظمهم الولايات المتحدة فلعبوا دوراً كبيراً يتناسب مع ما حصلوا عليه في معظم الأحيان من مسؤوليات مؤسسيّة هامة.

= (et Albert Bayet، واحد في بوردو (Max Bonnafous) وواحد في ستراسبورغ (Georges Gurvitch)؛ أما المحاضرات الأخرى فكان يعطيها فلاسفة في إطار شهادة الأخلاق وعلم الاجتماع في إجازة الفلسفة (Source J. Heilbron, Les métamorphoses du durkheimisme, 1920 - 1940, in Revue française de Sociologie Vol XXVI n° 2، 1985، p. 203 ـ 237). في الفترة نفسها في انكلترا كان فقط «المدرسة لندن للاقتصاد» قسم ومنبر لعلم الاجتماع (M. E. Kent, A History of British Empirical Sociology, op. cit, p. 125).

فمثلاً على ذلك بتريم أ. سوروكيم (1880 - 1968) Pitrim A. Sorokim، وهو روسي وكان سكرتيراً سابقاً لكرنسكي Kerinski، نفي عام 1922 واستقر في الولايات المتحدة حيث أسس قسم علم الاجتماع في جامعة هارڤارد (1931) وأصبح رئيساً لجمعية علم الاجتماع الأميركية من 1963 إلى 1968؛ وبول لازارسفلد (1901 - 1976) Paul Lazarsfeld، ولد في ڤيينا، وهو دكتور في الرياضيات التطبيقيّة، هاجر إلى الولايات المتحدة عام 1931 وأسس عام 1940، في قسم جامعة كولومبيا، مكتب أبحاث تطبيقيّة في العلوم الاجتماعيّة، حيث حدد أهم الطرق في التحقيق الحديث بالاستمارة؛ وجورج غورڤيتش Georges Gurvitch (1865 - 1894)، وهو روسي، واستاذ في جامعة مونْسْكْ Monsk، ساهم في ثورة أكتوبر ولكنه كان مؤيداً لاشتراكيّة ديموقراطيّة فكان عليه أن يهاجر عام 1920. فعلّم في جامعة براغ مدة ثلاث سنوات، واستقر في فرنسا عام 1925 حيث ناقش أطروحة عام 1931 وعين أستاذاً في جامعة ستراسبورغ عام 1935. وبعد تهديد وجه إليه التجأ إلى الولايات المتحدة عام 1941 ونشر عام 1946 بالتعاون مع أهم علماء الاجتماع الأميركيين كتاباً توليفياً هو علم الاجتماع في القرن العشرين. ومنذ عودته إلى فرنسا، أدار أول مختبر حديث في علم الاجتماع، هو مركز الدراسات السوسيولوجيّة 1946، ثم عيّن أستاذاً في السوربون (1949) وأخيراً أسّس الدفاتر الدولية في علم الاجتماع (1954) Les cahiers internationaux de Sociologie كما أسس وبالتعاون مع هنري جان Henri Jeanne الجمعية الدولية لعلماء الاجتماع الناطقين بالفرنسيّة (1958).

وإذا لم يحصل جميع علماء الاجتماع المهاجرين على وظائف بالأهمية ذاتها على الصعيد المؤسسي إلاّ أنهم لعبوا دوراً حاسماً في الانصهار الداخلي للتقاليد السوسيولوجيّة المتعددة، وبنوع خاص الألمانيّة والأنكلوساكسونيّة: وهذه كانت حال تيودور آدورنو Théodor Adorno، وماكس هوركيمير Max Horkeimer، وكارل مانهايم Karl Mannheim، وهربرت ماركوز Herbert Marcuse، وألفرد شوتز Alfred Schutz... الذين احتلوا مكانة فكرية كبيرة سنطّلع عليها فيما بعد.

2 ـ أخيراً، كرست هذه الحقبة القطع بصورة عميقة في العلم الحديث والعلم التقليدي هذا القطع الذي مهد له منذ بداية القرن مع نظريات الفيزياء الجديدة في النسبية والكمّات. إن هذه النظريات ليس لها تأثير مباشر على علم الاجتماع ولكنها حطمت نهائياً الدعامة «الطبيعانيّة» التي كان باستطاعته أن يستند إليها في القرن السابق. فمع التطور المتوازي لمنطق الرياضيات الحديث وفكرة نظام البديهيات الذي تولد عنها وجدت الفيزياء الحديثة في المنطق الوضعي لحلقة ڤيينا[1] إحدى تعابيرها الإپستمولوجيّة: لقد اتجه العلم ليظهر كلغة لوصف الواقع حيث يجدر به أن يبني نحوَه وينقّي مفرداته من أجل أن يتميز بشكل واضح عن الميتافيزيك وكي يعمل على بناء وحدته. إن تفوق الفكر الشكلي هذا وهذا الحذر من العموميات الفارغة أو من الوصف الأدبي سوف يعطيان صبغة جديدة لأبحاث ستجري في حقول مشابهة فتطال في لحظة معينة علم الاجتماع، سواء تعلق الأمر بالألسنيّة السوسوريّة أو علم الصواتة البنائيّة، أو علم التوجيه ونظرية الأنظمة، أو نظرية الألعاب وتحليل القرار. وسوف تضع بشكل خاص قواعد استخدام الرياضيات المتعددة في علم الاجتماع إلى جانب الإحصائيّات التي هي نفسها في قمة انطلاقها.

وبشكل متماثل ستشهد هذه الفترة تجديداً عميقاً لما يمكن أن نسميه الفكر الترميزي. فدون أن يهدف هذا الفكر إلى فهم البنيات الكامنة بل إلى تفكيك الدلالات وإلى إبراز خصوصيات التجربة الإنسانيّة فهو يستقي من منابع متعددة سواء امتزجت مياهها أو انفصلت سوف تعطي أيضاً نغمة جديدة لخُطاب العلوم الإنسانيّة: فالظواهريّة لهوسيرل ـ خاصة في ترجمتها الثانية ـ والفلسفة الوجودية لهايدغر، والوجوديّة الفرنسيّة، والماركسيّة النمساوية الهنغاريّة، والتحليل النفسي ستقلب حقل المرجعيات الفلسفيّة والنفسانيّة لعلم الاجتماع: ففي البلدان الأكثر استيعاباً لهذا الإسهامات كألمانيا والولايات المتحدة سوف تمارس هذه تأثيراً حاسماً على علم الاجتماع. هكذا سيشكل في الولايات المتحدة الاتحاد التقليدي بين علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي والأنتروپولوجيا الثقافية حقلاً مفضلاً لتغلغل

---

(1) إن حلقة ڤيينا تعني مجموعة فلاسفة وعلماء منطق وفيزيائيين كانوا يجتمعون في ڤيينا في بداية سنوات 1920 وكان لها تأثير حاسم على الإپستمولوجيا، ونظرية العلوم في القرن العشرين (Voir A. Soulez (éd), Manifeste du Cercle de Vienne et autres écrits, Paris, PUF, 1985).

التحليل النفسي في العلوم الاجتماعيّة الذي سيمهد له فضلاً عن ذلك هجرة العديد من المحللين النمساويين والألمان.

وبما أنه جرى تبرير اختيار الحقبة فما هي العناصر التي يجب التوقف عندما في هذه الحقبة من وجهة نظر بناء علم الاجتماع؟ من الواضح أنه يصعب بدرجة أكثر من المرحلة السابقة، القيام باستعراض المؤلفات والمؤلفين الذين تتضاعف أعدادهم.

هل علينا إذن التركيز على المدارس القومية؟ إن الوضع هنا مختلف جداً عن الوضع الذي سبق حرب 1914. فقد عرفت ألمانيا في عهد جمهوريّة ڤايمار Weimar تطوراً كبيراً لعلم الاجتماع الذي بقدر ما تميز بتغلغله الجامعي تميز بتنوع إنتاجه. فإذا كانت أعمال كتلك التي لماكس شيلر (1874 - 1927) Max Scheller أو كارل مانهايم (1893 - 1947) Karl Manheim قد وضحت علم اجتماع المعرفة، أو إذا كانت الظواهرية لهوسيرل Husserl قد أخصبت علم اجتماع الفهم بفضل ألفرد شوتز (1899 - 1959) Alfred Schutz بنوع خاص، إلاّ أنه لا نلاحظ تجديداً ذا دلالة من قبل «مدرسة علم الاجتماع الألمانيّة» في تقدم بناء العلم. إن هذا البناء سيُصنع في الواقع بطريقة غير مباشرة بفضل التأثير الذي سوف يمارسه هؤلاء المؤلفون على علم الاجتماع الأميركي.

إن المدرسة الفرنسيّة لعلم الاجتماع، في سياق مختلف متميز بضعفها المؤسسي وبتوقف تطورها وبأزمة الانضمام إليها، قد استمرت فاقدة وحدتها[1] بشكل بارز. لا شك أن فرنسوا سيميان (1873 - 1935) François Simiand وموريس هالڤاكس (1877 - 1945) Maurice Halwachs ومارسيل موس Marcel Mauss (1872 - 1950) قد تابعوا البرنامج الدوركايمي رغم أنهم عدّلوا فيه وأكملوه. فقد كان لموس Mauss إلى جانب الدكتور پول ريڤيه Paul Rivet مدير متحف الإنسان ولوسيان ليڤي برول Lucien Lévy - Bruhl تأثير حاسم في تكوين جيل جديد من علماء الاتنولوجيا الذين سيعطون للإتنولوجيا الفرنسية هوية مميزة

(1) انظر المقال الشديد التفصيل ل. ج. هيلبرون المذكور آنفاً.

لفترة طويلة: موريس لينهارت M. Leenhart، مارسيل غريول M. Griaule، ألفريد مترو A. Métraux، روجيه باستيد R. Bastide، كلود ليفي ستروس C. Lévy - Strauss، جورج بالنديه G. Balandier... إلاَّ أن علم الاجتماع الفرنسي لن يشهد تجدداً مماثلاً إلاَّ بعد عام 1950.

إن التحدث عن مدارس قومية لم يعدله إذن خلال هذه الفترة معنى التأسيس الذي كان يتخذه في الفترة السابقة. وفي المقابل ظهر شكل جديد للمدرسة: يعود في معظم الأحيان إلى تجمع لعلماء اجتماع يمارسون في معهد جامعي مشترك أسلوباً واحداً من علم الاجتماع وذلك خلال فترة زمنية طويلة وبرؤية توجيهيّة قويّة أو يرجعون إلى الانتماء الفلسفي نفسه. هذا هو حال ما اتفق على تسميته في هذه الفترة بمدرسة فرانكفورت أو مدرسة شيكاغو. وبدرجة أقلّ يمكننا أن نتحدث كذلك عن مدرسة كولومبيا. إن الضعف المؤسسي لفرنسا لن يسمح لها برؤية مثل هذه الظاهرة. قد تستطيع وحدها المدرسة القصيرة العمر لعلم الاجتماع Collège de Sociologie (1937 - 1939) التي تأسست على هامش المؤسسة الجامعية بالتقاء السّوريالية والاتنولوجيا والظواهريّة على يد جورج بالنديه G. Balandier وجول مونيرو Jules Monerot، وروجيه كايوا Roger Caillois وميشال ليريس Michel Leiris أن تقارب هذه الظاهرة.

إن مدارس من هذا النوع هي بالفعل المكان الذي سيُبنى فيه علم الاجتماع خلال هذه الفترة. ولكن وفق طرق مختلفة يصعب معها إجراء المقارنات: فالالتزام الفلسفي والسياسي لمدرسة فرانكفورت ليس له علاقة كبيرة بالاختراع الطرائقي والنموذجي لمدرسة شيكاغو. كما أن التجديد يمكن أن يأتي أيضاً من مكان آخر. يجب إذن وضع مقياس. ففي سياق الفصل السابق استخدمنا المقياس التالي: ما الجديد الذي تقدمه هذه الحقبة في الطريقة التي يطرح بها علم الاجتماع تساؤلاته وإشكاليّاته، ويبنى فيها موضوعه؟ يبرز إذن اتجاهان أساسيان: تأسيس علم اجتماع تجريبي حقيقي، بلورة «برامج» جديدة تواجه متغيرات سيطرة البنيات ببديلي المعنى من جهة والتاريخ من جهة ثانية. فسوف نخصص لهما هذا الفصل والفصل التالي.

ثانياً ـ ولادة علم الاجتماع التجريبي

1 ـ لقد تركزت خلال هذه الحقبة في الولايات المتحدة مختلف التقنيات وإجراءات التجميع ومعالجة وتحليل المعطيات التي تميز علم الاجتماع التجريبي الحديث رغم أن مثل هذا الجزم يمكن أن يبدو مبالغاً فيه، إلاّ أنه صحيح تماماً إذا عنينا «بعلم الاجتماع التجريبي الحديث» تطبيق مجموعة من الوسائل والإجراءات والتمكن منها بواسطة هيئة مهنية على اعتبار أنها جزء أساسي من نشاطه العلمي الطبيعي والمنتظم.

وإذا عنينا بها بشكل أوسع تجميع للمعطيات بواسطة تحقيقات وتعدادات فإن علم الاجتماع هذا يستقي جذوره من حركة ملاحظة الاجتماع التي درسنا نشوءها في القرن التاسع عشر. إن هذه الحركة لأبعد من أن تتوقف فجر سنوات 1880 فقد دامت حتى الحرب العالمية الأولى واتخذت أشكالاً متعددة. لقد تطور وتنوع الجهاز الإحصائي بارتباطه بالإدارات الحكوميّة الناشطة: ففي فرنسا مثلاً إن نشوء مكتب العمل عام 1891 أسس مرصداً رسمياً للطبقة العاملة الذي نشر ابتداء من عام 1894[1] عدة تحقيقات كما أن إقامة الدراسات المفردة للطبقة العاملة ضمن حركة لوبلي Le play قد استمرت، بينما استمر في انكلترا تقليد بوث Booth من خلال تحقيقات روتري Rowtree وبولي Bowley وأمثالهم[2].

أما في ألمانيا فرغم تطور متأخر إذ إن التحقيقات الأولى الكبرى تعود إلى 1875[3] إلاّ أن حركة هامة من البحث نشأت بمبادرة جامعيين وناشرين وموظفين وبعض الصناعيين المتجمعين في منظمة ڤيرين ڤور سوسيالبوليتيك Verein Für

---

(1) مصدر ميشال بيرو M. Perrot، البونيف Les Bonneff والتحقيق الاجتماعي في بداية القرن العشرين، مقدمة للطبعة الجديدة لليون وموريس بونيف La vie tragique des travailleurs L. et M. Bonneff, 1908, rééd, Paris, Edi, 1984.

(2) مصدر د. كارادوغ جونس D. Caradog - Jones, Evolution of the social survey in England since Booth, in The American Journal of Sociology, 1941, P. 818 - 825.

(3) إن الموضوع هو تحقيق شروط الحياة في المصانع بقيادة لو رايشستاغ Le Reichstag وآخر حول العمال الزراعيين بقيادة تيودور فون در غولتز Theodor Von der Goltz بطلب من مؤتمر الملاك العقاريين (soucre A. Oberschall, Empirical social research in Germany - 1848 - 1914, Paris - La Haye, Mouton, 1965, p. 19).

Sozialpolitik، التي ساهم فيها بنشاط ماكس ڤيبر Max Weber. لكن النقطة الحاسمة ما زالت الطلاق الموجود بين التحقيق الاجتماعي وعلم الاجتماع. فكما أعلن ريمون أ. كنت Raymond A. Kent في انكلترا: «كل شيء يجري وكأن قواعد علم الاجتماع التجريبي الشديد الحداثة والمبني على المستويين التحليلي والنظري، كأن هذه القواعد ستنبثق فجأة من عدة جهات. ولكن كل موقع يتبين لنا أنه منطلق خاطيء»[1].

ورغم أن الوضع في ألمانيا مختلف إلاّ أنه يؤدي إلى النتيجة نفسها.

إن التلازم بين التحقيق وعلم الاجتماع هو هنا أكبر. فقد حاول فرديناند تونيس Ferdinand Tönnies، على نقيض إحصاء اجتماعي وصفي يجري بتراكم أعمى للأرقام، تأسيس علم إجتماع تجريبي حقيقي تحت اسم سوسيوغرافيا، ينطلق من استقراء المعطيات وصولاً إلى القوانين. وقد خصص لهذا جزءاً كبيراً من نشاطه مضاعفاً الأرقام والتقاطعات. وبسبب تعقيدات التطورات وعجز التوفيق بين هذا الاتجاه التجريبي والتطور النظري الذي تحدث عنه المؤلف فضلاً عن ذلك، كانت النتيجة في النهاية فشلاً نسبياً[2].

وقد ساهم ماكس ڤيبر M. Weber من جهته في حركة ڤيرين ڤور سوسيالبوليتيك Verein Für Sozialpolitik، فقام بقيادة تحقيقات مختلفة مباشرة أو غير مباشرة لهذه الجمعية. أما أهم أعمال تلك الحقبة فهي لپول غوهر Paul Göhre الذي دخل إلى العمل مدة ثلاثة أشهر في مصانع شيمنيتز Chemnitz للآلات والأدوات عام 1930 ولأدولف لڤينشتاين Adolf Levenstein الذي باشر بأول وأكبر تحقيق عن المواقف مخصّص للطبقة العاملة عام 1907 فقد كان ڤيبر على اطلاع واسع عليها بحيث إنه أقام علاقات شخصية مع مؤلفيها[3]. كما أنه

(1) A history of British empirical Sociology, op. cit., p. 74.

(2) Nous reprenons ici l'étude d'Antony Oberschall, Empirical research in Germany, op. cit., p. 51 - 63.

(3) P. Göhre, Drei Monate Fabrikarbeiter, Leipzig, 1891; A. Levenstein, Die Arbeiterfrage, Munich, 1912.

نفسه ساهم مباشرة في تحقيق كبير بدأته عام 1907 جمعية لو فيرين Le Verein تحت قيادة أخيه ألفرد فيبر Alfred Weber. وكان الموضوع هو دراسة تأثير العمل الصناعي على القدرات الجسدية والعقلية للعمال. فبدفع من ماكس فيبر M. Weber، اتخذ هذا العمل اتجاهين جديدين كلياً: من جهة خضع لإشكاليّة نظرية حقيقيّة[1]؛ ومن جهة ثانية استخدم استمارات موجهة مباشرة إلى العمال وليس كما كان يجري في التحقيقات السابقة حيث كانت تعبّأ من قبل وسطاء. ومع ذلك كانت النتيجة هي الفشل: لقد كان يصطدم المحققون المجيّشون لتوزيع الاستمارات وجمع المعلومات الإضافيّة المتعلقة بالمؤسسات بلامبالاة العمال: فأقل من 10٪ من الاستمارات جرت تعبئتها[2].

وهذا ما حدث في ألمانيا أيضاً، فبالرغم من عبقرية البعض وجهود البعض الآخر فالملامح الظاهرة لعلم اجتماع تجريبي فشلت في تأسيس اتجاه بحث حقيقي قادر على تحويل واسع لنمط ممارسة علم الاجتماع. فخلال المرحلة التالية وطوال الفترة التي لم يكن التأثير الأميركي ملموساً فيها إن وضع علم الاجتماع الأوروبي حول هذه النقطة لم يتطور بصورة أساسية. فالطلاق بين التحقيق الاجتماعي وعلم الاجتماع استمر: فباستثناء الاتنولوجيا حافظت المدرسة الفرنسيّة على تقليدها في الارتباط غير المباشر بالوقائع حافظ؛ علم الاجتماع الألماني على أولوية اهتمامه بالنظرية، حتى عندما وُضع برنامجٌ حقيقي للأبحاث التجريبيّة[3] مع مدرسة فرانكفورت. بينما شهدت انكلترا نشوء شكل من التحقيق الشديد الغرابة سمي من قبل مؤسسيه بمراقبة الجماهير Mass Observation إلى جانب متابعة التقليد الذي أسسه بوث Booth.

(1) لقد عرضها فيبر هكذا بعبارات تذكر بموضوعات «الأخلاق البروتستانتية»: «التحقيق الحالي يهدف إلى: من جهة ما هي تأثيرات المؤسسة الصناعية بشكل عام على النفسية الفردية والمصير المهني ونمط حياة قواها العاملة، ما هي المزايا النفسية والجسدية التي تساعد على تنميتها وكيف تظهر هذه في نمط الحياة اليومي للعاملين؟ من جهة ثانية: كيف سيتحدد التطور الحالي والمحتمل في المستقبل للصناعة على مستوى كبير بخصائص العاملين الناجمة عن أصولهم الإتنية والاجتماعيّة والثقافيّة وعن تقاليدهم ونماذج حياتهم» Source A. Oberschall, op. cit. p. 114.

(2) المرجع نفسه P. 113 - 131.

(3) الفصل التالي: C.f.

لقد حدّد لنفسه هذا التحقيق الذي أسسه عالم أنتولوجيا هو توم هاريسون Tom Harrison وصحافي هو شارل مادج Charles Madge، هدفاً هو كشف العادات اليومية للطبقات الشعبية من أجل أن يوضع لها «خطياً القوانين غير المكتوبة وجعل القوى غير المرئية مرئية. إن غرابة هذا المشروع مضاعفة: إن من حيث الطريقة أو من حيث الموضوع. فقد طلب هاريسون Harrison ومادج Madge متطوعين يقبلون تسجيل ملاحظاتهم اليومية، فكانوا ثلاثين عام 1937 وأصبحوا ألفاً عام 1933 أضيف إليهم مراقبون بدوام كامل كانت مهمتهم دراسة مدينة صناعية في شمالي إنكلترا بشكل دقيق. فضلاً عن ذلك، فقد استبدلوا المواضيع السابقة عن العمل والفقر بمواضيع عن الحياة وأوقات الفراغ والتصرفات اليوميّة: التدخين، الذهاب إلى الحانة، متابعة مباراة كرة القدم[1]. ولكن رغم هذه العرادة وتنوع تقنيات الملاحظة المستعملة فإن عدم كفاية الدقة في وضعها موضع التطبيق وغياب كل أساس نظري لم يسمحا، فضلاً عن ذلك، بردم الهوة بين الوصف والتفسير[2].

2 ـ لقد ولد علم الاجتماع التجريبي الحديث في الحقيقة في الولايات المتحدة. إن هذا العلم لم يسلم بسحر ساحر من المصاعب التي أحصيناها. ولكنه استطاع أن يبني تقليداً جديداً في البحث الذي بقدر ما هو قابل للانخراط في إطار ميدان أكاديمي هو قابل لغزو العصر ولخلق الهيئة الأولى المهنية من علماء الاجتماع.

وخير معبّر عن هذه الخصوصية هو المسار المهني لعالم اجتماع مثل روبرت بارك Robert E. Park مؤسس ما اتفق على تسميته بمدرسة شيكاغو: ولد عام 1864، السنة التي ولد فيها ڤيبر وستة سنوات تماماً بعد دوركايم ولكنه لم يدخل إلى المجال الجامعي إلاّ عام 1914! قبل ذلك وبعد دراسته في جامعة ميشيغان عمل صحافياً، ثم تابع مساره الجامعي في هارڤرد وهيدلبرغ حيث كان استاذه الفيلسوف الكانتي المحدث فيندلباند Windelband وعالم الاجتماع جورج سيمل G. Simmel، الذي ناقش أطروحته للدكتوراه عام 1904. وتابع روبرت بارك لدى عودته إلى الولايات المتحدة نشاطاته الصحافية ثم استقر في الجنوب من عام 1905

(1) T. Harrison et C. Madges (eds), Ferst Year's Work, 1937 - 1938, Mass Observation, Lindsay Drummond, 1938.

(2) Voir A History of British Empirical Sociologiy, op. cit., p. 117 - 120.

إلى 1914 حيث أصبح سكرتيراً لبوكر واشنطن Boker T. Washington زعيم رابطة الدفاع عن السود[1] وورفع مستواهم فبدخول پارك Park إلى الجامعة في سنه الخمسين، كان قد ترك وراءه مساراً مهنياً كاملاً. ولكن هذا المسار بالتحديد أتاح له من خلال علاقته بزملاء له في شيكاغو تأسيس برنامج بحث حقيقي.

هناك ظروف متعددة تفسّر بروز هذا النوع من علم الاجتماع في الولايات المتحدة. بدون أدنى شك هناك سياق اجتماعي مؤاتٍ: مجتمع فتي في حركة بناء دائمة حيث حددت الموجات المتعاقبة من المهاجرين المستوطنين في البداية في مدن الشرق الكبرى لبناء أحياء فيها مطبوعة بثقافتهم الأصلية، مجال تحقيق دائم يطرح مختلف المشاكل حول تعايش الأقليات الإتنية، ونشوء المهمشين. وتبنين التجمعات؛ تطور أشكال حديثة في إدارة المشاريع والإدارات والجماعات الكبرى فاتحة عالم العمل للباحثين ليس تحت شعارات استنكار الشروط الحياتية للعمال ولكن تحت راية تحليل البنيات التنظيميّة والأدوار الآيلة إلى مختلف العاملين. ولكن هذا الإطار لا يكفي. فلكي يبرز علم اجتماع تجريبي حقيقي يجب أن تتوفر عناصر أخرى: هناك استعانة منتظمة قياسيّة وأحياناً كثيفة بكفاءات عالم الاجتماع أو مساعديه لدراسة هذه المشاكل على الأرض؛ أداء مرن للنظام الجامعي بشكل كافٍ يسمح بالإخصاب المتبادل بين الأعمال النظرية والأبحاث التجريبيّة، والانتقال السهل وغير الإشكالي بين الاهتمام والاهتمام الآخر، وإمكانية التغلغل في كل من المجالين بشكل متزامن كما فسر بارك Park على أفضل وجه. تجذر جامعي واسع بشكل كافي يسمح على مدى طويل ببناء أقطاب بحث وشبكات علائقيّة وجلسات مناقشة وتنظيم بحيث يصبح ممكناً أخيراً مهما كانت الحدود غير دقيقة وجود علم اجتماع كمجال أكاديمي أي كحقل يُدرّس يكون قادراً على أن يشكل مخزناً للمراجع ولطرق العمل المشتركة سواء بالنسبة إلى الطالب أو المتمرّس أو الباحث أو المدرِّس.

من المؤكد أن علم الاجتماع الأميركي عرف كيف يركز تدريجاً هذه الشروط

---

(1) Source E. W. Burgess, In Memoriam Robert E. Park, 1894 - 1944, in The American Journal of Sociology, 1944, p. 478.

رغم أن نتائجه كانت أحياناً غير دقيقة ومؤسفة. ففي بداية القرن العشرين كانت تأسنسية هذا العلم متقدمة جداً على البلدان الأخرى: فكان يدرّس بشكل أو بآخر في 227 مؤسسة تعليميّة عالية بواسطة 220 مدرساً. فالمحاضرات المدرّسة (علم الاجتماع العام، النظرية السوسيولوجيّة، علم الأمراض الاجتماعيّة، الخ. . .) كانت تحدده كمجال مستقل متميز من حيث موضوعه والمشاكل التي يتناولها أكثر من تميزه من حيث طريقته. ولكن قلة من المدرسين قد حصلوا هم أنفسهم في تلك الحقبة على ثقافة عالم اجتماع. فالاستخدام السريع للكتيبات (Text Books) سيكون له دور حاسم في تثبيت هذا العلم. فمنذ عام 1901، ومن أصل مئات المؤلفات المعتمدة من قبل المدرسين برز فقط عدد من العناوين. فالكتاب الأكثر استعمالاً هو الذي كتبه ألبيون سمول A. W. Small مؤسس قسم علم الاجتماع في جامعة شيكاغو ـ و ج. إ. فنسان مدخل إلى دراسة المجتمع :G. E. Vincent An Introduction to the studies of Society (1894). كان هذا الكتاب يركز كمعظم النصوص في تلك الفترة على القواعد العامة والتقسيمات الكبرى لعلم الاجتماع وفق التصميم التالي: 1 ـ أصل ومجال علم الاجتماع. 2 ـ التاريخ الطبيعي للمجتمع. 3 ـ التشريح الاجتماعي. 4 ـ الفيزيولوجيا والپاتولوجيا الاجتماعيّة. 5 ـ علم النفس الاجتماعي[1]. لم يكن هذا بعد هو الهيكل الحقيقي للعلم، وكان سمول Small على بينة من ذلك:

«لقد كان علم الاجتماع رغبة جامحة أكثر من كونه مجموعة أساسيّة من المعلومات، أو وجهة نظر محددة أو طريقة دقيقة في البحث. لقد كان اندفاعاً للوصول إلى بعض المجالات الواعدة لمعرفة إلى ماذا تؤدي أكثر مما كان مجموع من النتائج العلمية المصاغة بصورة جيدة (. . .) فلم يستطع علم الاجتماع لا عام 1893 ولا عام 1901 الادعاء بأنه يكّون هيكل عقيدة علمية أو وجهة نظر أو طريقة بحث»[2].

رغم هذا الطرح القاسي الارتدادي (1916)، فإن الأهمية القصوى لاستخدام

---

(1) المعلومات المختلفة في هذا المقطع مأخوذة من مقال مورغان J. G. Morgan. Courses and Texts in Sociology, Journal of History of Sociology, 1983, 1, p 42 - 65.

(2) Cité par J. G. Morgan, p. 57 - 58.

المجلدات في تركيز العلم يجب أن لا يستخف بها. فإن علم الاجتماع الأميركي طوال تاريخه وحتى يومنا الحالي، رغم أنه يبدو ضعيفاً أكاديمياً في نظر الأوروبيّين، يعطي أهمية كبيرة لتدريسه: فنشهد كل فترة ولادة عشرات المجلدات التي تساهم في دمج الإرث القديم بالاهتمامات الجديدة وبتكوين القالب العلمي لعلم الاجتماع[1]. وإذا كان الموضوع يتعلق قبل الحرب العالميّة الأولى باستثارة اهتمام مشترك كما يذكر سمول Small آنفاً إلاّ أن الأمور تغيرت بشكل معبر في المرحلة التالية: فمنذ الآن أصبح الأمر يتعلق بإدراج علم الاجتماع بصورة قاطعة في منظور علمي. فالمجلد الذي وضعه روبرت پارك Park وإرنست بورغس E. W. Burgess, Introduction to the Science of sociology (1921) (مدخل إلى علم الاجتماع) سيدشن هذا التوجه الجديد ويشكل أحد أكبر المراجع لعلم الاجتماع الأميركي الجديد: فهو يحتوي على أكثر من ألف صفحة وقد بيع منه أكثر من 30 ألف نسخة بين 1921 و1943 وكان ذلك بالنسبة إلى تلك الحقبة وإلى عمل بهذه الضخامة شيئاً استثنائياً جداً.

يقسم الكتاب إلى 14 فصلاً. فباستثناء الفصل الأول «علم الاجتماع و"علوم الاجتماعيّة» تأخذ كل الفصول البنية نفسها: مقدمة سريعة، مختارات مهمة من نصوص مجمعة حسب المواضيع، خاتمة تحت شكل عرض للمجال، متناسقة من المراجع موضوعات أبحاث مكتوبة وأسئلة. أما المراجع فتعود لأكثر من 1000 مؤلف يمثل بينهم مكاناً هاماً سيمل Simmel، تارد Tarde، توماس Thomas، دوركايم Durkheim، كولي Cooley. إن سيمل Simmel الذي ناقش معه پارك Park أطروحته فقد جاء ذكره 29 مرة وقدّم عشرة نصوص. بينما لم يحظ ڤيبر Weber إلاّ بثلاث إشارات[2] كما أن عناوين الفصول ابتعدت عن العموميات

---

(1) Pour une étude comparative de ces manuels, voir l'article de E. D. McCarthy et R. Das, Americain sociology's idea of itslf: a review of the textbook literature from the turn of the century to the present, History of sociology, vol. 5°2, 1985, p. 21 - 43.

(2) لم يكن ڤيبر معروفاً في الولايات المتحدة قبل عام 1940 إلاّ من قبل أقلية من علماء الاجتماع متوجهين في معظم الأحيان نحو النظرية وكانوا قد أقاموا في ألمانيا، مثل تالكوت پارسونز T. Parsons. (cf. j. Platt, weber's verstehen and the history of qualitative research: the missing link, The british Journal of Sociology, Vol. XXXVI, n° 3, 1985, p. 448 - 466).

الفلسفيّة أو التصنيفات المستوحاة من البيولوجيا، لصالح تصنيفات جديدة مرتبطة مباشرة بموضوعات الأبحاث المتنامية في تلك الحقبة: طبيعة الإنسان (الفصل الثاني)، التجمع والمجتمع (الفصل الرابع) الانعزال (الفصل الخامس)، العلاقات الاجتماعيّة (الفصل السادس)، التفاعل الاجتماعي (الفصل السادس)، التماثل (الفصل الحادي عشر)، الرقابة الاجتماعية (الفصل الثاني عشر)... وبصورة أوضح يقسم الفصل الأول تاريخ علم الاجتماع إلى ثلاثة مراحل: مرحلة كونت وسبنسر Comte et Spenser، حيث هو فيها «فلسفة للتاريخ»؛ مرحلة «المدارس» حيث يحاول علم الاجتماع الموزع بين مدارس متعددة أن يحدد وجهة نظر خاصة به وأخيراً مرحلة الدراسة والبحث التي سيدخل الآن فيها:

«إن علم الاجتماع هو حالياً بمواجهة الوضع الذي وجد فيه علم النفس قبل إدخال طرق المختبر والذي وجد فيه الطب قبل پاستور Pasteur ونظرية الجراثيم (...) إن علم الاجتماع يبدو الآن في طريقه لأن يصبح بشكل أو بآخر علماً اختباريًا. وهذا سيتحقق عندما يعرف هذا العلم كيف يطرح المشاكل الموجودة بطريقة ما بحيث إن نتائج حالة ما تحدد ما يمكن وما يجب أن يقدم في حالة أخرى. لقد جرت تجارب في كل حقل من الحياة الاجتماعيّة، في الصناعة والسياسة والدين. ففي كل هذه الحقول كان الناس موجهين بواسطة نظرية ضمنيّة أو صريحة حول الوضع، ولكن هذه النظرية لم تكن مطروحة علانية على صورة فرضيات كما لم تكن خاضعة لتجربة الحالات السلبية»[1].

إن هذا الهم في إدراج علم الاجتماع في تصور اختباري يلتقي مع كلمة الأمر عند دوركايم ـ ففي الواقع إن كتاب القواعد هو واحد من أربعة مؤلفات حول الميتودولوجيا العامة المعتمدة كمراجع[2] في المجلد. ولكن بينما يلتقي هذا الأمر

(1) R. E. park et E. W. Burgess, Intoduction to the science of sociology, 3° éd, Chicago, The University of Chicago Press, 1969, p. 44 - 45.

(2) Avec A. B. Small, The meaning of social Science, Chicago, 1910; J. H. Bridges, Illustrations of Positivism, in Methods of Research, Chicago, 1915 et W. I. Thomas et F, Znaniecki, The polish peasant in Europe and America, I. Methodological Note, Boston, 1918 - 1920 (op. cit., p. 58).

حصراً عند دوركايم مع طريقة مقاربة سببية متأتية من علوم الطبيعة، فهو يلتقي في علم الاجتماع الأميركي مع تنوع كبير في الصيغ الطرائقيّة التي بقدر ما تسمح بدراسات محصورة أو بأعمال جامعية محدودة تسمح بتحقيقات ضخمة واضعة موضع الاختبار مجموعة أكثر فأكثر اتساعاً من تقنيات التحقيق. وأكثر من ذلك فهو يغذي جدالاً طرائقياً وإبستمولوجيا دائماً يؤدى بواسطة تيارات فكرية مختلفة وصراعاتها إلى وضع منهج تقنين لعدد من الإجراءات.

ثالثاً ـ نشوء تقليد معقد

1 ـ إن بروز علم الاجتماع الحديث في فرنسا وفي ألمانيا انطبع بشكل قوي بمعزل عن كل عامل آخر بقوة الجدال والتفكير الإبستمولوجي. وقد صادف حصول ظاهرة مشابهة في الولايات المتحدة في ما بين الحربين. لقد لعب مؤسسو علم الاجتماع الأميركي في بداية القرن، ألبيون سمول A. W. Small (1854 - 1926)، فرانكلين غدينكز F. Giddings (1855 - 1931)، ادوارد روس E. A. Ross (1866 - 1951)، شارل كولي C. H. Cooley (1864 - 1929) دوراً تاريخياً حاسماً: فقد عززوا تأسيسية العلم (خاصة سمول Small في شيكاغو وغدينكز Giddings في كولومبيا) بإعطائه بعض خصائصه الأساسية: الهم في جعل علم الاجتماع علماً وضعياً والتحفظ على الفصل بين الاجتماعي والنفساني والثقافي. ولكن هذا لم يؤد إلى مناقشات كبيرة حقيقيّة.

على العكس، إن الدخول في حقبة «علم الاجتماع التجريبي» الذي تحدث عنه بارك Park وبورغس Burgess في مؤلّفه سيؤدي إلى إنتاج أعمال تجريبيّة عديدة وفي الوقت نفسه إلى جدال طويل حول الطرق التي يجب استخدامها في علم الاجتماع. إن نتيجة هذا النقاش تتلخص غالباً بالشكل التالي: لقد حل مكان علماء اجتماع شيكاغو المؤسسين والمدافعين عن طرائقية نوعية والمفضلين دراسات الحالة والمستخدمين تقنيات الملاحظة سير حياة، علماء اجتماع كولومبيا المروّجون لطرائقية كمية تضع في المقام الأول عملانيّة المفاهيم والمعالجة الإحصائيّة للمتغيرات وذلك بواسطة استمارات ومقابلات الموحّدة ومقاييس المواقف والآراء. لقد بدأ الجدال نفسه في أواسط العشرينات، وذلك بمهاجمة طريقة دراسة الحالة.

وسيستمر طيلة عشرين سنة، واضعاً في المواجهة من جهة أنصار التعددية الطرائقيّة ومن جهة ثانية هؤلاء الذين يصنفون أنفسهم «بالعملانيين»[1]. فتميز من الناحية المؤسسيّة بأزمة هامة داخل الجمعية الأميركيّة لعلم الاجتماع التي قررت عام 1935 رفض اعتبار الجريدة الأميركيّة لعلم الاجتماع The American Journal of Sociology التي يشرف عليها قسم علم الاجتماع في شيكاغو كالجهاز الرسمي لها وتأسيس مجلة مستقلة هي The American Sociological Review.

لقد أعطي هذا الجدل ومحصلته عدة تفسيرات: استبدال «نموذج مثالي» بآخر على أثر بروز البنيانية الوظيفيّة بعد عام 1940 في مدرسة كولومبيا[2]، صراع سياسي ضد هيمنة قسم علم الاجتماع في جامعة شيكاغو الذي كان في تلك الفترة أغنى وأقوى قسم في هذا المجال بما لا يقارن[3]؛ تحول بنيوي في المجتمع الأميركي بعد الحرب العالمية الثانية[4]. غير أن الأمور تبدو أكثر تنوعاً في المضمون، ونشهد غِنى تقليد لم يرسم لنفسه محدداً ولم يجامل في المواجهات الفاصلة بل يكثر من الجسور والصلات مشجعاً بذلك الابتكار الطرائقي.

لم تكن شيكاغو حصناً لمدرسة عقائدية تركز بصورة حصرية على «المدينة كمختبر اجتماعي»[5]، وعلى تطبيق دراسات الحالة؛ فقد انفتحت باكراً إرادياً على المقاربات النوعية وتطبيق الإحصاءات الحديثة على الظواهر الاجتماعية. إن توظيف

---

(1) نقطة حديثة حول هذا الجدل نجدها في مقال ريشارد إيفنز R. Evans Sociological Journals and the «Decline of Chicago Sociology: 1929 - 1945, History of Sociology, Vol. 6, 2 - 7, 1 - 7, 2, 1986 - 1987, n° 1 - 2, p. 109 - 129.

(2) H. Kuklick, A scientific revolution: Sociological Theory in the United States, 1930 - 1945, Sociological Inquiry, vol. 43, 1973, p. 3 - 22.

(3) P. M. Lengermann, The founding of the American Sociological Review: the Anatomy of a Rebellion, American Sociological Review, vol. 44, n°2, 1979, p. 185 - 197.

(4) أ. بيريس A. P. Pirès، الطريقة النوعية في أميركا الشمالية: جدال مفقود 1918 ـ 1960)، علم الاجتماع والمجتمعات، Vol. XIV, n° 1, 1982, p. 16 - 29.

(5) Selon le titre - programme d'un article de R. E. park, The city as a social Laboratory, 1929, trad. in Y. Grafmeyer et I. Joseph (eds), L'Ecole de Chicago, naissance de l'écologie urbaine, Paris, Aubier, 1984.

وليم أوغبرن William F. Ogburn (1886 - 1959) عام 1927 في شيكاغو الذي تعلم في كولومبيا وأصبح سريعاً من أهم شخصيات المعارضة «العملانية»، يمكن تفسيره ليس كتراجع أو ضلال بل كنتيجة لسياسة القسم المهتمة بإعطاء تلامذته أفضل تعليم. فلقد استفاد هؤلاء بالفعل منذ 1920 من محاضرات في الإحصاء كان يلقيها الاقتصادي كارل پيرسن Karl Pearson ومختبره للإحصاء في لندن. فبواسطة فيلد Field تدرب طلاب شيكاغو بهذا الشكل على الأدوات التي سوف تصبح أدوات علم الاجتماع الكمي. ومع وصول أوغبرن Ogburn تكوّن تيار قوي بحيث إن عالم النفس ثرستون Thurstone في القسم المجاور طوّر نظرية عملانيّة للمواقف سيتبين أن استخدامها في علم الاجتماع هو فعّال بصورة ملحوظة. لقد لعب أحد طلابه اللامعين صمويل ستوفر Samuel Stouffer، دوراً أساسياً: لقد حل مكان ثورستون Thurstone لفترة من الزمن في محاضرات الإحصاء وخصص أطروحته في علم الاجتماع لدراسة مقارنة للمواقف لعينة من 238 طالباً إزاء موضوع التحريم. فقد طلب من هؤلاء أن يصفوا حياتهم ويعبروا عن آرائهم حول الموضوع من جهة وأن يعبّئوا مقياس المواقف الذي بناه تورستون Thurstone من جهة ثانية. إن معالجة هذين النموذجين من الوسائل أظهر تلازماً كبيراً بين النتائج المحصلة ولكنه برهن عن الأمانة الكبيرة وخاصة الكلفة الضئيلة للمعالجة الكمية. ومن ثم أمضى ستوفر Stouffer سنتين في لندن وأتمّ تأهيله في الإحصاء في المدرسة الأكثر تقدماً في تلك الفترة التي قدمت مع پيرسون Pearson، يول Yule، فيشر Fisher، بولي Bowley، للعلوم الإنسانيّة أدواتها الأساسيّة للتحليل الكمي: تقنيات انتقاء العينة، اختبار الأدلة، اختبار الارتباط، التحليل المتعدد. أخيراً عام 1935 عيّن ستوفر Stouffer استاذاً في جامعة شيكاغو[1].

إن هذه التبعية المتبادلة داخل قسم علم الاجتماع في جامعة شيكاغو للتيارين اللذين يتصارعان مع ذلك في مقالات ومؤلفات الطرائقيّة، تظهر إلى أيّ مدى هذه المعارضة لم تكن بالضرورة مستعصية. لقد كان هذا تماماً هو رأي بعض القياديّين

(1) حول هذا التطور بمجمله أنظر The chicago School, Martin Bulmer of Sociology, chicago, The university of chicago press, 1984, specialement les chapitres 9 et 10.

كتوماس Thomas أو بورغس Burgess. لقد كتب هذا الأخير عام 1927:

«إن الطرق الإحصائيّة ودراسة الحالة لا تتعارض: إنها في الواقع مكمّلة بعضها لبعض. إن المقارنات والارتباطات الإحصائيّة يمكنها في معظم الأحيان أن تقترح مجالات لأبحاث يمكن إجراؤها بطريقة دراسة الحالة، والمواد الوثائقيّة تدعو بصورة حتمية بقدر ما تعبّر عن مسارات اجتماعيّة لبناء مؤشرات إحصائيّة أكثر ملاءمة. فمهما كان الوضع إن الإحصاء ودراسة الحالة يمكنهما تقديم مساهمة كاملة كأدوات في البحث الاجتماعي فعليهما الاستفادة من اعتراف متبادل متساوٍ ويصبح من الأنسب تماماً أن تطور كل طريقة تقنيتها الخاصة بها. وفي الوقت نفسه إن اجتماع الطريقتين يمكنه أن يضحي مثمراً بشكل أكبر»[1].

يتضح لنا بلا شك إذن أن التقليد الأميركي يتضمن في الوقت نفسه مؤلفات تركز على الفوارق (كما يبدو عليه خاصة حالة التيار «العملاني»، بالإضافة إلى استخدام المنشورات التي تركز على التقنيات المقننة)، ومؤلفات أكثر انتقائيّة تندرج في الخط الذي رسمه آنفاً بورغيس Burgess. إن هذا يؤدي أيضاً إلى استقلاليّة نسبية للعمل التجريبي: فإذا كانت مختلف المقاربات أو حسب التعبير المستخدم سابقاً مختلف برامج علم الاجتماع الأميركي تحوك روابطِ أكثر متانة مع هذه الطريقة أو تلك التقنيات إلا أنها تظل دائماً مرجّحة لأن تستخدم بطريقة مستقلة نسبياً، كما يشهد على ذلك التحقيقات الكبرى التي تميز هذه الفترة وتشكل «كنز» التقليد التجريبي الأميركي.

2 ـ من الصعب الاطلاع على الأعمال التجريبيّة العديدة التي أنجزت في الولايات المتحدة خلال هذه الفترة[2]. إنما يمكن تصنيفها حسب الموضوع ـ التمييز الديني، الجماعات، جماعات المنحرفين، المواقف الانتخابيّة، تنظيم

(1) E. W. Bugess statistics and Cose Studies as Methods of Sociological Pesearch, Sociology and Social pesearch, 12, 1927, repris in Bulmer, op. cit., p. 185.

(2) إن المحاضرات التي ألقاها تيودور كابلوف T. Caplow في السوربون في 1968 ـ 1969 تعطي نظرة شاملة واضحة عمّا يسميه «التقليد الأميركي»: L'enquête sociologique, Paris, Armand Colin 1970.

العمل، الطبقات الاجتماعيّة. . .؛ وحسب الصفة ـ أطروحات جامعيّة، دراسات محصورة، تحقيقات ضخمة تحتاج إلى تنظيم معقد للبحث؛ وحسب انتمائها إلى برنامج ـ مقاربة بيئيّة (مدرسة شيكاغو) التي تفضّل دراسة الحالة «في بيئتها» للجماعات «الطبيعيّة»، مقاربة ثقافيّة تعطي الأولويّة لدراسة الجماعات، مقاربة وظيفيّة مهتمة أولاً: بالأجهزة المنظَّمة ومختلف الأدوار التي تحددها، مقاربة تفاعليّة[1]. . . سوف نختار بحثين، «الفلاح البولوني» و«الجندي الأميركي» اللذين يشكلان إطاراً لهذه الحقبة. فهما ينتميان إلى النواة المركزيّة للتقليد الأميركي ويعبّران بشكل نموذجي عن ابتكاره وتنوعه الطرائقي.

لقد نشر عام 1918 وليم توماس William I. Thomas وفلوريان زنانيكي Florian Znaniecki الفلاح «البولوني في أوروبا وأميركا». دراسة مونوغرافيّة لجماعة مهاجرة. رغم أن هذه الدراسة استوقفت القارئين أقلّ من سواها في تلك الفترة من الدراسات السابقة ولم تترجم أبداً إلى الفرنسيّة إلاّ أنها غالباً ما اعتبرت كالعمل المؤسس لعلم الاجتماع الأميركي الحديث. لقد سبقت قليلاً مصنَّف پارك Park وبورغيس Burgess والكتاب الجماعي «المدينة» The City[2]، الذي بدأ عام 1925 كنوع من بيان مدرسة شيكاغو، التي كان ينتمي إليها أيضاً توماس Thomas.

لقد ظهر هذا العمل في خمسة أجزاء تجمع بين إعادة تسجيل المعطيات الخام والتركيب النظري والتحليلات الطرائقيّة. فهو يدرس بواسطة مادة سِيَرية مؤلفة أساساً من رسائل فلاحين بولونيين، أشكال التنظيم الاجتماعي لهذه الجماعة المحددة وتغيراته في حالة الهجرة. إن نقطة انطلاق البحث كانت بالصدفة: لقد حصل وليم توماس W. I. Thomas من مؤسسة خاصة على تمويل لدراسة هجرة

(1) نستخدم مجدداً هنا التصنيف ذو الأربعة مواضيع الذي وضعه نيكولا هرپن N. Herpin, Les sociologues américains et le siècle, Paris, PUF, 1973, chp. 1 et 2. نضيف أن الكاتب لم يستخدم كلمة برنامج بل كلمة إشكاليّة.

(2) ترجم جزء منه إلى الفرنسية في مجموعة وضعها غرافماير Y. Grafmeyer وجوزيف I. Joseph, L'école de Chicago, naissance de l'écologie urbaine, op. cit.

الأوروپيين إلى الولايات المتحدة. إن وجود جالية بولونيّة كبيرة في شيكاغو هو الذي وجّه الأبحاث نحو هذا البلد. إن لقاءه مع فلوريان زنانيكي F. Znaniecki مدير جمعية حماية المهاجرين في ڤارصوفيا الذي هو شاعر وفيلسوف، كان حاسماً[1]. لقد زوّد هذا اللقاء توماس Thomas بالمواد عن السير الذاتية، وأعطى الكتاب المشترك كل بعده الإپستمولوجي بفضل كتابة زنانيكي لمقدمة طويلة من أكثر من ثمانين صفحة بعنوان بسيط هو «ملاحظة طرائقيّة».

إن الطابع النموذجي والمؤسس للفلاح الپولوني يعود إلى قدرة البحث في الوصل بشكل قاطع بين خطوط تفكير علم الاجتماع الأميركي لتلك الفترة مع مادة تجريبيّة من نوع جديد ـ وثائق السير الذاتيّة ـ الذي جرى تحليل بعدها النظري والإپستمولوجي بشكل دقيق في المقدمة الطرائقيّة، فعلى عكس الأعمال المستندة إلى التقاليد التجريبيّة أو النظرية السابقة التي تميل إلى إهمال قطب لصالح الآخر إن تكاملهما يندرج في تنظيم المؤلف نفسه: لقد تمّت كتابة الوثائق المختارة التي تشكل قاعدة التحليل بكاملها في الأجزاء I إلى III: من جهة هناك سلسلة رسائل مجموعة في ثلاثة أصناف (المراسلات داخل جماعة العائلة، بين الأزواج ونسائهم، خارج الجماعة العائلية) معروضة عائلة عائلة، ومن جهة ثانية هناك سرد طويل لحياة المهاجر (life record) (الجزء الثالث). هذه المعطيات الخام يسبقها عرض عام لشروط حياة الفلاح البولوني (الجزء الأول) ويتبعها تحليل نظري للتغيُّر الاجتماعي الذي أصاب هذه الشروط في پولونيا كما في الولايات المتحدة (الجزءان الرابع والخامس).

إذا كان تقديم معطيات خام بهذا الاتساع والاستعانة بمادة السيرة الذاتية لمعالجة قضايا اجتماعيّة هو أمر حديث جداً وإذا كانت إضافة بعد نظري إلى هذه المعطيات يزيل السيئة التقليدية للتحقيقات الاجتماعيّة السابقة فإن أفضل ما يعبر عن عملية البناء العلمي المنجز هو المقدمة الطرائقيّة. إن هذه المقدمة رغم تواضعها

---

(1) حول هذه النقطة انظر مقال لانيو Markiewicz - Lagneau، فلوريان زنانيكي F. Znaniecki، عالم اجتماع النشاط الاجتماعي والطريقة التحليلية، Revue française de Sociologie, Vol. XXIII, 1982, p. 171 - 193.

الظاهري تنتمي بحدّ ذاتها إلى تيار التفكير على الذات الذي من خلاله تكوّن علم الاجتماع كعلم والتي قام بتوضيحه قبلها كتاب قواعد المنهج في علم الاجتماع أو الأبحاث الإپستمولوجيّة لماكس ڤيبر. لقد تمّ فيها تمييز علم الاجتماع عن المعنى الشائع بشكل واضح وكان هدفها التعريف بحياه المجتمع في كليته «Account the whole life of a given society»)[1].

ولكن هذا لا يمكن أن يتم إلاً «بعملية مسبقة اصطلاحيّة لاختيار وعزل بعض المجموعات الخاصة من الوقائع»، (ص. 18)، وبالتالي هذه العملية تحتاج إلى مبدأ:

«منذ أن ندخل في صلة مع المواد، نبدأ في اختيارها بواسطة مؤشرات تحتوي عدداً معيناً من التعميمات الطرائقيّة والفرضيات العلمية. وهذا ما يجب أن يحدث لأن الواقع الملموس في كليته التجريبيّة لا يمكن نقله في العلم، فلا يمكن وصفه ولا توضيحه. فيجب أن نتوقف عند بعض المعطيات الهامة على المستوى النظري، ولكن يجب أن نعرف كيف نميز المعطيات الهامة» (ص. 19).

إن المشكلة هي التي سوف تسمى في التقليد الطرائقي اللاحق «بناء الموضوع». إن المشكلة لم تطرح هنا فحسب بل أعطيت لها جواباً شديد الغرابة: لقد اقترح توماس Thomas وزنانيكي Znaniecki بتركيزهما على التبعية المتبادلة بين الفرد والتنظيم الاجتماعي مفاهيم «القيمة» و«الموقف» للتعريف عن هذين القطبين: فالقيمة هي كل موضوع اجتماعي يحمل دلالة وقابل بفضل ذلك لإحداث فعل؛ والموقف هو كل تصور واعٍ عند الفرد لفعل محتمل. فتبيان الاجتماع يتجلى إذن في معرفة الاتصال الضروريّ بين هذين العنصرين. ولكن هذا يحدّد حقلاً مشتركاً لعدة علوم. تتميز بحسب مجال دراستها (الفن، الاقتصاد، الدين. . .) وبحسب القطب الذي تعطيه الأولوية: القيم أو المواقف. فعلم الاجتماع يتميز بكونه يدرس نوعاً خاصاً من المواقف: هي المواقف التي تنتظم في نماذج أو في قواعد (Rules) محددة أجهزة ومؤسسات اجتماعيّة.

(1) The Polish Peasant in Europe and America, Boston, Richard G. Badger, 1918, vol. I: Methodological Note, p. 18.

إن الثنائيّة في محددات الفعل الاجتماعي، الموضوعيّة من جهة (قيم ومواقف مؤسسة حسب قواعد)، والذاتية من جهة ثانية (المواقف بشكل عام ونسبة العلاقة بالقواعد) تحدد خصوصية السببية في العلوم الاجتماعيّة: «فسبب قيمة ما أو موقف ما ليس أبداً قيمة أو موقفاً فقط، إنه دائماً مزيج من القيمة والموقف» (ص. 44).

إن هذا التركيب يفسر إذن ثلاثة أمور:

ـ نمط من ممارسة خاصة للسببيّة، حيث علاقة من نوع «إذا A إذن B» ـ «إذا كانت زوجتي تخونني، أتركها» ـ يمكنها أن تتحقق أوّلاً لحظة تدخل عناصر أخرى وخاصة عندما يقوم الشخص المعني بتحليل الوضع وفق تسلسل مختلف لسببية محتملة.

ـ العودة إلى الدراسات المفردة كوسيلة قابلة لأن تقدم في الوقت نفسه بعداً مزدوجاً موضوعياً (القيم) وذاتياً (المواقف) وأن يحدد بواسطة مقارنة الحالات بعض الخطوط السببية، بعض «القوانين» المحتملة.

ـ أخيراً، الصفة العلمية للعمل المقدم: فبمواجهة المثال الأعلى القانوني للعلم الذي يقرّبه المؤلفون، يظهر التحقيق المقدم ذا إمكانية محدودة: وهي إبراز المواقف والقيم المسيطرة في جماعة اجتماعية واقعية بطريقة استقرائيّة»، فمثل هذا البحث يجب أن تجري متابعته على جماعات أخرى أو يمكنه بصورة خاصة التأسيس للقيام بعمل مقارن بفضل المواضيع التي أظهر أهميتها دون العودة إلى الطريقة المونوغرافيّة بل إلى طريقة تجزيئيّة تعزل جانباً معيناً (ص. 78 وما يليها).

خلال الحرب العالميّة الثانية، قرر مركز أبحاث الجيش الأميركي La Research, Branch Information and Education Division الموضوع تحت إدارة الجنرال فريديريك أوسبرن F. Osborn أن يطلق تحقيقات متعددة تبرز موقف الجنود إزاء القضايا التي طرحتها الحرب. إن هذا العمل هو من أهم الأعمال في تاريخ علم الاجتماع التجريبي: فقد جند أكثر من 130 معاوناً علمياً؛ وأجرى من كانون الأول 1941 إلى آب 1945، 243 تحقيقاً مختلفاً مع حوالي 000 500 جندي.

فطرحت موضوعات متعددة من المواقف تجاه القيادة، والرواتب، والتبديلات، الخ، إلى الأفضليات في القراءات وأوقات الفراغ. وحتى هدايا عيد الميلاد! سوف يؤدي هذا إلى وضع مئات التقارير التي ستنتهي بنشر أربعة أجزاء بعنوان دراسات في علم النفس الاجتماعي في الحرب العالميّة الثانية[1] Studies in Social Psychology in world war II.

لقد عهد بكتابة هذه الأجزاء إلى علماء اجتماع وعلماء نفس اجتماعيين معنيين مباشرة بالعمل وبنوع خاص إلى صمويل ستوفر Sammuel A. Stouffer أحد الوجوه القيادية للتيار العملاني. كذلك بينما كان «الفلاح البولوني» يدشن ويوضح علم اجتماع تجريبي مبني على الدراسة المفردة لمواد السير الذاتيّة، فإن الجندي الأميركي يقدم الصورة الأكثر كمالاً للمقارنة الكمية المستخدمة لمختلف تقنيات مقاييس المواقف وحساب معاملات الارتباط.

فكل فصل يحدد مشكلة. وهذه المشكلة يمكنها أن تأخذ الشكل المسبق لعلاقة ما: «كيف يتغير التكيف الشخصي حسب الخصائص الأساسية للفرد» (الفصل الرابع)؛ «كيف يتغير التكيف الشخصي حسب نوع الخبرة العسكرية» (الفصل الخامس). أو يمكنها أن تأخذ شكل دراسة تفريعيّة: «الحراك الاجتماعي داخل الجيش» (الفصل السادس)؛ «الجنود السود» (الفصل العاشر)... في كل الحالات لقد ظهرت المعطيات كجدول منظم من الوقائع، مؤلف من تفريق الأجوبة على سؤال محدد ومن تقاطع عدة متغيرات، ومحصلات قياس المواقف، ومن مقتطفات معبّرة من المقابلات... إن القاعدة لمشروع من هذا النوع هي طرائقيّة محضة وتكمن في اعتبار أمرين: فمن جهة يمكن أن نعزل ونقيس «الموقف»؛ ومن جهة أخرى هذه المواقف يمكن أن ترتبط بصورة معبّرة المميزات خاصة بالأفراد (العرق، الأصل، مستوى الدراسة، الخ). أو بنمط انخراطهم في التنظيم موضوع الدراسة (المركز، السلاح، التجربة في القتال، الخ). فمفهوم «الموقف» ليس هنا كما في السابق مع توماس Thomas وزنانيكي Znaniecki مرتبط ببناء خاص بالموضوع، بل هو أداة تقصٍّ. ففي الفصل الأول، «كيف وضعت هذه الأجزاء»،

(1) Samuel A. Stouffer et al., Princeton, New Jersey Princeton University Press, 1949.

يوضح ستوفر Stouffer أنه إذا لم يكن بالمستطاع الاتفاق على تعريف فلسفي لكلمة موقف، فعلى العكس من المسموح به أن نجعله يستخدم بصورة عملانيّة دقيقة. وهكذا في الفصل الثالث مثلاً، «كيف يتغير التكيف الشخصي في الجيش. تأملات أوليّة»، تعرض الطريقة التالية:

ـ التعريف بمفهوم التكيف من وجهة نظر التنظيم المعني (الجيش) وتحديد بعدين أساسيين: التصرف غير الشفهي (نحصل عليه من خلال عدة وقائع لقبول أو رفض)، والتصرف الشفهي (التعبير عن الرضى أو عدم الرضى نحصل عليه بواسطة استمارة التحقيق).

ـ تقسيم البعد الشفهي إلى عدة عناصر ووضع أسئلة مبنية على شكل مقاييس من أجل قياسها.

ـ حساب متوسطات الإجابات على كل مقياس لمختلف الجماعات المحددة في المجموعة موضوع الدراسة (ضباط، متطوعين، مجندين...)، ومقارنة هذه المتوسطات.

ـ مقارنات مثبتة على أساس طريقة تساوي الجماعات والمتوسطات المحصلة على مختلف الأسئلة من جماعتين أو أكثر، خلال عدد n من التحقيقات.

ـ من خلال تنظيم هذه المقارنات إقامة ارتباطات غالبة بين متغيرات كبيرة، مثل مستوى الدراسة والأخلاق أو مستوى الدراسة وتأييد أو انتقاء الجيش، فالتقدم بهذا الشكل على مستويات متتالية يجعل الطريقة قادرة على العمل على تركيب المعطيات المحددة التي جمعت في عدد n من التحقيقات المختلفة وعلى بناء علاقات من نوع: إن مستوى دراسة أكثر ارتفاعاً يؤدي إلى تكيف أفضل في الجيش رغم نظرة أكثر نقدية لأدائه.

3 ـ بقدر ما بني علم الاجتماع التجريبي الأميركي وجرى اختياره من خلال تحقيقات كبرى من هذا النوع أو من خلال مضاعفة أعمال من عدة أنواع، فقد قام لأول مرة بالجمع بين الاختراع الطرائقي والهم الإپستمولوجي. فوسّع ونظم بمنهج إطار تقنيات التقصّي ومعالجة المعطيات الذي تمّ بناؤه سابقاً وأخضع استخدامها

للتفكير حول فائدة وأبعاد النتائج المحصّلة. فخلق بصورة دائمة عدة طرائق سوف تشكل العتاد المشترك للعلم رغم استطاعتها الادعاء بأنها ذات تصورات مختلفة: فتقليد دراسة الحالة سينشىء علاقة مع الحقل ـ الملاحظة المباشرة في معظم الأحيان ـ ومع المعطيات ـ تركيب وتفسير مواد «رمزية» ـ ستستمر في اتجاهات مختلفة؛ فالاتجاه «العملاني» الذي يَسْهُل وضع القواعد له، سيؤدي إلى ظهور مصنفات متعددة وإلى كل التدقيقات التي يسمح بها تطور متوازٍ للإحصاء. إن توحيد نمط التحقيق الكمّي شجعه بشكل قوي الاستخدام المتزايد له في مؤسسات التحقيق في الرأيَ العام. لقد كان لهذا الأمر نتيجتان: فمن جهة سمح بفضل نوع من التنمية التدريجيّة بوضع قواعد لمنطق البحث[1] دقيقة نسبياً؛ ومن جهة ثانية سمح بتشجيع استخدام أدواتي وتجاري لوسيلة ستنتهي بسرعة بابتعادها عن إشكاليّة علميّة عامة إلى مضاعفة المعطيات التي لا معنى لها رغم اتخاذها الشرعيّة التي أمدتها بها اللغة الرياضيّة والهيمنة التي تنتج عن استخدام سهل واقتصادي. فليس مستغرباً إذن أن ينتقد بعض علماء الاجتماع المتأثرين بالتقليد الأوروبي نقطة الضعف في هذا التركز؛ فقد سارت النظرية الاجتماعيّة نحو الزوال لصالح ألاعيب رياضية لا أساس لها في معظم الأحيان، وهذا ما انتقده پتريم سوروكين Pitrim Sorokin عام 1956 على أنه «الهوس الكمي» و«الرقمي» الذي يجتاح علم الاجتماع والعلوم الاجتماعيّة:

أصبح كل شخص تحت راية هذه العدوى بالهوس الكمي، باحثاً علمياً أو محققاً عالماً فقط لأنه أخذ بعض الأوراق وملأها بأسئلة من كل نوع وأرسل استمارات إلى كل المراسلين المحتملين، وحصل على أجوبة صنفها بشكل أو بآخر، وحسب محتواها بآلة حاسبة ووضع النتائج في جداول (تظهر هذه الجداول النسب المئوية المحصلة بشكل آلي إذا جاز التعبير، ومعاملات الارتباط، والمؤشرات، والتصحيحات للانحرافات الطبيعيّة، وغيرها من الأخطاء المحتملة)،

(1) سوف يتمم هذا العمل بصورة خاصة پول لازارسفيلد Paul Lazarsfeld الذي سيؤسس مكتب البحث الاجتماعي التطبيقي في جامعة كولومبيا وسينشر عام 1955 مع موريس روزنبرغ Morris Rosenberg مصنّفاً من النصوص المختارة المتعلقة بطرق التحليل الكمي في العلوم الاجتماعية والذي سوف يصبح وسيلة أساسية لتعلمها وهو The Language of social research.

من أجل أن يكتب أخيراً مقالاً أو كتاباً متخماً بالأرقام والجداول والقواعد والمؤشرات، وكل الدلائل المحسوسة على بحث «موضوعي»، منهجي، دقيق وكمي. لقد خلقت طقوس حقيقيّة في البحث المعاصر في علم الاجتماع وعلم النفس والعلوم الاجتماعيّة الأخرى؛ هذه الطقوس يقوم بها بصورة ميكانيكية مجموع من المحتفين جاهزين إلى حدّ ما لتنفيذها»[1].

(1) P. Sorokim, Tendances et déboires de la sociologie américaine, 1956, trad. Paris, Ed. Aubier, 1959, p. 221.

الفصل الرابع

البنى والوظائف
المعنى والتاريخ

عام 1953 أثبت روبرت ميرتون Robert K. Merton قبل بتريم سوروكين Pitrim A. Sorokin بثلاث سنوات الطلاق الواقع داخل علم الاجتماع[1] بين التفكير النظري المولع فقط بالمعنى والبحث التجريبي المهتم بالوقائع بشكل حصري. لقد أعلن عن ديمومة مشكلة ظهرت منذ مطلع القرن التاسع عشر والتي يمكن صياغتها بالشكل التالي: كيف يمكن لأطروحة ما أن تكون ملائمة وصحيحة في آن معاً؟ فلكي يقوم هذا الارتباط لا يكفي أن تكون النظرية من الناحية المفهوميّة كافية وأن يكون الوصف التجريبي قابلاً للإثبات بشكل قاطع. ولا يكفي كذلك استخلاص التعقيدات الفلسفيّة للطريقة أو تلخيص النتائج الطرائقيّة لموقف نظري كي تتم هذه العلاقة[2] ولمجرد الانسجام المنطقي. ففي الواقع هناك عنصر ثالث يجب أخذه بالاعتبار، وهو ما يسمى حسب المؤلفين مقاربة أو مثالاً نموذجيًا، أو نمطاً من الفهم[3]. فيتعلق الأمر بطريقة محددة في بناء موضوع الدراسة نظرياً واختبارياً في الوقت نفسه بإعطاء الأفضليّة لعلاقة معينة أو لبنية تفسيريّة أساسيتين:

يمثل دوركايم وفيبر في كتبهما الأساسيّة وتوماس وزنانيكي في المقدمة الطرائقيّة «للفلاح البولوني» مثل هذا الموقف. وعندما يغيب هذا الموقف تتجه

(1) R. K. Merton, Eléments de théorie et de méthode sociologique, 1953, trad Paris, Plon, 1965.

(2) Sur ce point voir l'article de Jennifer Platt, Fonctionalism and the survey; the relation of theory and method, The sociological Review, vol. 34, n°3, 1986, p. 501 - 535, et la discussion à laquelle il donna lieu (articles de D. Layder, J. Platt et M. Bulmer, in The sociological Review, vol. 36, n°3, 1988, p. 441 - 474).

(3) Cf. J. - M. Berthelot, L'Intelligence du social, op. cit., Ou J. Herman, Les langages de la sociologie, Paris, PUF, Coll. «Que sais - je?», 1983.

النظرية للانغلاق ضمن لعبة بناءاتها المفهوميّة والتجريب ضمن تجميعه الأعمى للمعطيات. ولكن وضعه موضع التنفيذ لا يتم من تلقاء ذاته. إن علم الاجتماع لا يبني نظريات يُكتفي بتطويرها. فهو يقدم مجموعات متنافرة جزئياً يبنى داخلها تدريجاً، كما في التقاطعات القوية، النواة القاسية للمقاربات أو للنماذج المثاليّة الخاصة. لقد وصفنا هذه المقاربات والنماذج آنفاً «بالبرامج». سوف تتطور خلال الفترة الممتدة من نهاية الحرب العالمية الأولى وحتى الستينات اتجاهات متنوعة لبرامج من هذا النوع. وسوف تتحمل أعمالاً كثيرة وسيجري التعبير عنها في الصراعات حول الطريقة وفي بيانات «المدارس» وستدفع خاصة كما جرى في مرحلة التأسيس إلى ظهور عدد من المؤلفات المرجعيّة ذات القيمة من حيث تطبيقها المثالي لبرنامج محدد ضمن وحدة النظرية والتجريب.

سوف نتابع ثلاثة من هذه الاتجاهات. وسنضع جانباً بصورة جزئية الأنظمة النظرية وبرنامج التحليل السببي. فالأنظمة النظرية لا تهمنا هنا إلاّ من حيث استعدادها للمساهمة في بناء برنامج ولتجاوز القطع الذي تحدث عنه مرتون Merton. والتحليل السببي من جهته إذا لم يؤدِّ إلى عمل نظري يمكنه الاقتصار على الارتباطات بين المتغيرات. إن تطور العملانية جعل استخدام التحليل السببي ممكناً وأكثر تصنعاً وتحكماً به مما كان بإمكان دوركايم أن يحققه. وعلى العكس جعله في معظم الأحيان منفصلاً عن كل تفكير نظري مهما كان عمقه كما يشهد على ذلك «الجندي الأميركي» الذي درسناه آنفاً.

أولاً ـ البنى والوظائف

1) منذ القرن التاسع عشر كان تصور الظواهر الاجتماعيّة مطبوعاً بافتراض واضح: هو انتماؤها إلى الكل، ففي أي مستوى يمكن أن نجدها يكون هذا الكل هو المجتمع.

إن مفهوم الكلية هذا يحتوي ثلاثة أفكار:

ـ ضرورة القيام بالتمييز بين الكل وعناصره.

ـ تكوين هذه العناصر ليس فقط كأجزاء من الكل وإنما على اعتبار أنها

تساهم في وظيفته.

ـ عدم اختزال الكل بمجموع أجزائه أو بعبارات أخرى، هيمنة الكل على الأجزاء.

إن الجسم الحي هو المثال التقليدي لتنظيم من هذا النوع: فالعضو يتحدد بالوظيفة التي يشغلها داخل الجسم. فهذا الأخير ليس مجرد جمع للأجزاء بل هو نظام يلعب فيه كل عنصر دوره.

نلاحظ أن علم الاجتماع الناشىء يبدي إعجاباً شديداً بالمقارنة البيولوجيّة. فقد احتاج الأمر إلى كل قوة ودقة دوركايم ليفرض في الوقت نفسه ضرورة غلبة الكل على الأجزاء والضرورة القصوى لتبعية التفسير بالوظائف إلى التفسير بالأسباب[1]. فهناك الكثير من المؤلفين الذين لم تحرجهم هموم من هذا النوع افترضوا أن فهم المؤسسات الاجتماعيّة يتم بتفسيرها بغائيتها الظاهرة أو المجازية.

إلا أن فكرة كون الحقيقة الاجتماعيّة ليست مجرد إضافات للعناصر ولكنها تشكل نظاماً يجب إبراز عمله سوف تتخلص تدريجياً من هذه الترهات العضوانيّة لتؤدي خلال الفترة الممتدة في نهاية الحرب العالميّة الأولى حتى أواسط الخمسينات، إلى نشوء برنامجين مختلفين. الأول سيبقى أكثر التصاقاً بالمقارنة البيولوجية. ونواته التفسيريّة هي مفهوم الوظيفة وسوف ينتشر منذ بداية الحقبة، وسيعرف بسرعة تحت اسم الوظيفيّة. أما الثاني فتتغذى فكرة النظام عنده من مصدر مختلف جداً: فعلى صورة الألسنيّة وعلم الصواتة الحديث التي تدرس اللغات كأنظمة من الإشارات والأصوات يحاول أن يفهم البنية المنظمة للنظام: فكما أن الكلمات لا معنى لها بذاتها بل هي تكتسب معنى لها بفضل المكان الذي تشغله في مفردات لغة والاتفاق المنظم لاستخدامها، كذلك إن مختلف السمات الثقافية التي تميز مجتمعاً ما يمكن فهمها من خلال المعنى الذي تمنحه لها مكانتها داخل بنية معينة من العلاقات. يتعلق الأمر هنا بالبنيانيّة التي سوف تتطور في بداية الخمسينات.

---

(1) Cf. le chapitre V des Règles.

2) سوف تبدأ الوظيفيّة أولاً من الأنتروپولوجيا. ولن تصيب علم الاجتماع[1] إلاّ فيما بعد. ومن بين أسباب نقطة الانطلاق هذه هو أن الأنتروپولوجيا تعمل على مجتمعات ذاتٍ أحجام صغيرة ويمكن تناولها في كليتها[2].

لنفترض المسألة التالية: غالباً ما يحدث أن نكتشف في مجتمع ما عادة أو مؤسسة تبدو غريبة ومغلوطة تاريخياً بالنسبة إلى السير الحالي للمجتمع «كبقايا» أو «رواسب» أو «استعارات» من ثقافات أخرى. فالتعبيران الأولان يعودان إلى مفهوم تطوري، والثالث يعود إلى مقاربة انتشارية. وفي الحالتين تصبح الظاهرة معزولة عن محيطها الحالي: «فبدلاً من البحث عن الوظيفة الحالية للواقعة الثقافية، يكتفي المراقب بالتوصل إلى كيان جامد ومستقل».

فعلى عكس هذا الموقف، قدّم برونيسلو مالينوفسكي Bronislaw Malinowski (1884 - 1942) وهو أول عالم انتروپولوجيا يقوم بدراسات ميدانية طويلة ومتواصلة، والأستاذ في مدرسة الاقتصاد في لندن London School of Economics وكان إلى جانب ألفرد رادكليف براون - Alfred R. Radcliffe Brown رئيس مدرسة الانتروپولوجيا البريطانية التي ازدهرت بين الحربين، قدّم الطرح الذي يفترض أن استمرار الواقعة الثقافية سببه أنها تقوم بوظيفة حالية في المجتمع المعني.

فمن أجل تدعيم شرعية هذا الطرح، وضع مالينوفكسي Malinowski نظرية في الثقافة تستند إلى مفاهيم الحاجات وإشباع الحاجات. فكل مجتمع يبدي حاجات أوليّة مرتبطة بالطبيعة البيولوجيّة للإنسان، وحاجات متفرعة مرتبطة بالمتطلبات الخاصة بالبقاء: الاكتفاء الجسدي، والأمان والصحة... تنتمي إلى الصنف الأول؛ الانتاج الاقتصادي، القواعد الحقوقيّة، التنشئة الاجتماعيّة للجيل الجديد، تحديد السلطات... تنتمي إلى الصنف الثاني. فالوقائع الثقافية وبشكل

(1) أنظر من أجل تحليل تفصيلي للوظيفة de Jacques Coenen-Huther, Le fonctionnalisme en sociologie: et après?, Bruxelles, Ed. de l'Université de Bruxelles, 1984.

(2) B. Malinowski, Une théorie scientifique de la culture, 1944, trad. Paris, Points- Le Seuil, 1970, p. 31.

أدق المؤسسات، هي إجابات عن هذه الحاجات. فالمؤسسة تتحدد إذن بغائيتها ووظيفتها الحالية: «إن التحليل الوظيفي والتحليل المؤسسي يرتبطان بشكل قوي» (المرجع نفسه، ص 94).

إن للوظيفة عند مالينوڤسكي وجهين: فمن جهة تنشىء تصوراً نظرياً عن المجتمع والثقافة؛ ومن جهة ثانية باستنادها إلى هذا االتصور فهي تقدم برنامجاً لتحليل الظواهر يمكن اختصاره بالنقطتين التاليتين:

ـ لدراسة أي ظاهرة X يجب البحث عن المؤسسة التي تعود إليها: «إنني أتحدى أياً كان أن يذكر شيئاً أو نشاطاً أو رمزاً أو نمطاً تنظيميًا لا يمكنه أن يحتل مكاناً ضمن مؤسسة ما، في حين أن بعض الأشياء تعود إلى عدة مؤسسات وتقوم في كل منها بدور محدد» (المرجع نفسه، ص 136).

ـ البحث عن الوظيفة التي تؤديها المؤسسة والتعرف إلى الظاهرة X من خلال هذه المؤسسة.

سوف يتأثر علم الاجتماع بالوظيفيّة في الولايات المتحدة في الفترة الممتدة بين الحربين حيث ستجري دراسات متعددة جماعية تحت رعايتها. ولكنها سوف تصبح نموذجاً مهيمناً على علم الاجتماع الأميركي لما بعد الحرب بواسطة روبرت ميرتون R. K. Merton وتالكوت پارسونز T. Parsons بشكل أساسي.

لقد لعب روبرت ميرتون R. Merton دوراً أساسيّاً في هذا المشروع. وللمرة الأولى في تاريخ علم الاجتماع يحاول مرتون تقنين نمط من التحليل-معترف به بشكل صريح كنمط، أي متميز عن نظام نظري بقدر ما هو متميز عن مجموعة من التقنيات.

لقد استندت الوظيفيّة عند مالينوڤسكي Malinowski إلى عدد من المسلمات. فلقد قام مرتون Merton من خلال تبسيط هذه المسلمات وإخضاعها لنقد تفصيلي بتمييز حاسم بين الوظيفيّة والتحليل الوظيفي: فالأولى هي تصور عام ركيك مهدد دائماً بالجنوح لأن يصبح عقيدة أو نهجاً؛ بينما الثاني يحدد برنامج تحليل مرتون بالتحديد أن تقنين مفرداته.

إن المسلمات الثلاث التي ينتقدها مرتون هي مسلّمات «الوحدة الوظيفيّة

للمجتمع»، «والوظيفة العالميّة» و«الضرورة»[1]. فهذه المسلّمات الثلاث تفترض أن مؤسسة ما تقوم بوظيفة بالنسبة إلى المجتمع بأكمله (المسلمة 1)، وجود درجة من تدامج المجتمع غالباً ما تكون غير متحققة: فعلى العكس إن المؤسسة أو الظاهرة الثقافية يمكنها أن تقوم بوظيفة جزئيّة ومحدودة؛ ونتائجها يمكنها أن تكون إيجابيّة بالنسبة إلى بعض قطاعات المجتمع وسلبية بالنسبة إلى غيرها؛ فالوظيفيّة أخيراً يمكنها أن تبقى بينما تزول المؤسسة وتستبدل بأخرى. هناك إذن ليونة وإرهاف في استخدام المقاربة الوظيفية وهذا ما تفتقده تماماً الوظيفيّة الغارقة في تبسيطيّة علاقة الحاجة ـ بالمؤسسة.

فالتحليل الوظيفي يفرض إجراء توضيح لهذا الإرهاف بواسطة عدد معين من المفاهيم لكي ينتشر. لقد قام مرتون بإنجاز هذه العملية في نص مشهور عنوانه «مثال نموذجي للتحليل الوظيفي» ص. 100 ـ 105:

لقد استبدل كلمة «حاجة» التي استخدمها مالينوفسكي Malinowski، بعبارة «الحاجة الوظيفيّة» ليدل على مشكلة شروط بقاء النظام بالصورة التي أكثر ما يمكن أن تكون حياديّة.

ـ إنه يؤكد على أن «الحاجة الوظيفيّة» نفسها يمكن أن تؤديها مؤسسات أو وقائع ثقافيّة مختلفة، تلعب عندها دوراً «كمعادل أو كبديل وظيفي».

ـ إنه يطرح كإشكاليّة مفهوم الوظيفة بإقامة تمييز مزدوج:

ـ إذا تم التعرف على الوظيفة من خلال النتائج المستخلصة من عمل مؤسسة ما أو واقعة ما موحدة النمط، فهذه النتائج ليست بالضرورة وبشكل موحد إيجابيّة: فليمكنها أن تكون إيجابية (أو وظيفيّة) بالنسبة إلى نظام فرعي معين وسلبية (أو مضطربة وظيفياً) بالنسبة لآخر. فمن أجل الحكم على وظيفيّة هذه المؤسسة أو تلك الظاهرة لا بد إذن من تحديد «الرصيد الصافي لحزمة النتائج».

---

(1) R. K. Merton, Eléments de théorie et de méthode sociologique, op. cit., chap. III: «L'analyse fonctionnelle en sociologie», p. 73 - 86.

ـ إن نتيجة ما يمكنها أن تكون مقصودة ـ من قبل المشرّع أو من قبل الفاعلين ـ فتعود بالتالي إلى دوافع وأهداف واعية؛ كما يمكنها أن تكون غير مقصودة وغير مستحبّة؛ ففي الحالة الأولى نتحدث عن «وظيفة ظاهرة»، وفي الحالة الثانية عن «وظيفة كامنة».

وهكذا يتسلح التحليل الوظيفي ويفقد خلفيته المعتقدية والحشوية فيصبح أداة تحليل لنمط مساهمة الواقعة الثقافية أو المؤسسة في مختلف بنى النظام الذي تستتبعه. فيقدم ميرتون Merton حول ما جاء توضيحاً شهيراً بتحليل الآلة السياسيّة الأميركيّة (ص. 126 ـ 138): رغم أنها غالباً ما تكون موضوع اتهامات بسبب ارتباطاتها بطبقة اللصوص وتساهلها تجاه الفساد، والقوة المطلقة لرجالها إلاّ أن استمراريتها ترتبط بالوظائف الكامنة التي تؤديها، وبالأخص من خلال الزُبن السياسيّين، في تقديم المساعدة وإعانة ملموسة للمحتاجين:

في هذه المعركة بين بنيات الاستبدال من أجل تحقيق الوظيفة الواحدة نفسها وهي تقديم المساعدة والعون لمن هم بحاجة لذلك، من البديهي أن سياسي الحي هو أكثر اندماجاً في الجماعة التي يخدمها من المساعدة الاجتماعيّة، المجهولة، المحدودة بمهنتها، البعيدة اجتماعياً والمقيدة بالقوانين» (المرجع نفسه ص: 129).

كانت مهمة ميرتون Merton تهدف إلى توضيح وتبسيط نمط تحليل كان يبدو أنه سيغدو مسيطراً في علم الاجتماع الأميركي لما بعد الحرب خاصة بفضل قدرته على تحليل الأنظمة الفرعيّة المختلفة: فهذه يمكن إدراكها بالفعل سواء في وحدتها المادية، حسب تقليد الدراسة المفردة ـ دراسة مدينة، أو مؤسسة تعليميّة أو منظمة.... أو فهمها من خلال عينة من المواقف والتصرفات التي تسمح ببناء نظام الأدوار لمجموعة معينة ـ الأطباء، المعلمون، السياسيون.... غير أن التحليل بواسطة عبارات الوظيفة ينتج عنه وجهة نظر تقوم على الانطلاق من العنصر. والمنظور المعاكس يمكن أن يعطي الأولويّة للنظام ولتحليل قوانين تنظيمه الداخلية، على غرار ما كان يفعله في تلك الحقبة علم التوجيه. وهكذا سيتمكن التحليل الوظيفي من خلال هذا التبديل أن يصب في «التحليل النظامي». فهذا التحليل سيلتقي أولاً مع الطريقة الخاصة التي أعاد بها تالكوت پارسونز .T

Parsons صياغة الوظيفيّة، قبل أن يخضع للتأثير الحاسم لنظرية النظم العامة[1].

إن إنجاز تالكوت پارسونز T. Parsons، الأستاذ في جامعة هارڤرد Harvard والدكتور في جامعة هايدلبرغ Heidelberg، هائل وذو وزن كبير في الولايات المتحدة حتى سنوات 1970. يتعلق الأمر قبل كل شيء بمشروع بناء إطار مفهومي، منهجي قادر على التعريف بالفعل الإنساني. إن تالكوت پارسونز الذي ترجم «الأخلاق البروتستانتية» لماكس ڤيبر M. Weber منذ عام 1930، افتتح على هذا النحو أسلوباً في الاهتمام النظري أعاد اللحمة، رغم الجدالات الطرائقيّة، إلى علم الاجتماع التجريبي، مع الأهداف الجامعة للآباء المؤسسين، الذين كان يحاول أن يعيد بناء النواة المشتركة بين همومهم[2]. فالإطار المبني يضع في المستوى الأول مفهوم النظام ويحدد أربع مستلزمات وظيفيّة مشتركة في كل نظام مهما كان: التكيف مع المحيط، تحقيق الأهداف، التدامج، التماسك وانخفاض التوترات[3]. ثم يحلل في كل مستوى من النظام المعين الأنظمة الفرعية التي تقوم بالمستلزمات الوظيفيّة الأربع المحددة آنفاً: فالنظام الفرعي يقوم بمهمة التدامج للفعل الإنساني على اعتبار أن هذا الفعل هو نظام. وبالنسبة إلى هذا النظام الفرعي نفسه المنقسم إلى أربعة، إن الجماعة الاجتماعية هي التي تؤدي هذه الوظيفة. إن نظاميّة پارسونز Parsons أقلّ عملانيّة وليونة من المقاربة الوظيفيّة التي قنّنها ميرتون Merton، إلاّ أنها تطل على برنامج تحليل أكثر شموليّة سوف يختبر أكثر فأكثر فيما بعد: أنه البرنامج النظامي الذي يركز على مفاهيم النظام والتنظيم.

3) لقد تهيأت البنيانيّة على غرار الوظيفيّة من داخل الانتروپولوجيا. حتى إنها ورثت بشكل من الأشكال إرث مالينوڤكسي ورادكليف بروان R. Brown. ولكن على عكس هذين الأخيرين فبدلاً من أن تتوقف عند المقاربة البيولوجيّة وجدت في

---

(1) حول هذه النظرية أنظر: L. Von Bertalanffy, Théorie générale des systèmes, 1968 trad. Paris, Dinod, 1973; أما بخصوص الأشكال المتعددة للمقاربة النظامية في علم الاجتماع J. C. Lugan, Eléments d'analyse des systèmes sociaux, Toulouse, Privat, 1983.

(2) كان هذا موضوع كتابه الأول The Structure of social Action, New york, Mcgraw - Hill, 1937.

(3) يتعلق الأمر بما كان يسمى نظام AGIL (de Adaptation, Goal attainment, Integration, Latant pattern maintenance).

الألسنيّة الحديثة المثال النموذجي لتحليلاتها.

لقد عرض كلود ليڤي ستروس Claude Lévy Stauss في واحد من أول نصوصه التي نشرت بالانكليزيّة عام 1945[1] المقاربة التي وضعها موضع التطبيق بصورة منهجية في عمله الأول الضخم، «البنيات الأوليّة للقرابة»[2]. إن هذه المقاربة مستوحاة مباشرة من الألسنيّة وبشكل أخص من علم الصواتة الذي يُقرّ له باحترام شديد:

«لا يقل الدور الذي يلعبه علم الصواتة بالنسبة إلى العلوم الاجتماعيّة، عن الدور المجدد نفسه الذي لعبته الفيزياء النووية بالنسبة إلى مجمل العلوم الرياضيّة» ص. 39.

مع علم الصواتة دخلت فكرة البنية الشكليّة التي تعمل حسب قواعد تركيبيّة: فالعنصر لا قيمة له بذاته؛ هذه القيمة تمنحه إياها البنية الشكلية للنظام المعني والتي هي نفسها ليست سوى أحد الخيارات المحددة بمجمل التركيبات الممكنة للعناصر المعنية: وهكذا ليس اللون الأحمر للضوء هو الذي يدل على التوقف بل الحاجة إلى قانون بصري من وضعين أو ثلاثة يختار من بين الألوان أكثرها تمييزاً فيعطيها دلالة بصورة اعتباطيّة. إن هذا المنحى بتطبيقه على بعض الوقائع الثقافيّة يمكنه أن يكون شديد الفعاليّة.

لقد أخذ ليڤي ستروس Lévi - Strauss في النص الذي كتبه عام 1945[3] كمثل مؤسسة الخؤولة: ففي بعض المجتمعات يكون للعلاقات بين الخال وابن الأخت صفة قوية؛ فابن الأخت هو تحت سلطة الخال. لقد جرى الاعتقاد أولاً بوجود بقية محتملة لنظام أمومي؛ ومن ثم بتعبير وظيفي عن نظام نسب أمومي، أي بنظام نسبي ينتمي فيه الولد إلى عشيرة الأم. ولكن لوحظ وجود الخؤولة في المجتمعات الأبوية. لحل هذا اللغز لا بد في الواقع من تحليل نظام القرابة في المجتمعات البدائيّة: إن هذا النظام يفصح عن وجود علاقتين متناظرتين: بين الخال

(1) Voir T. Parsons, Eléments pour une sociologie de l'action, Paris, Dunod, 1973, et l'ouvrage de Guy Rocher, Talcott Parsons et la sociologie américaine, Paris, PUF, 1972.

(2) نشر بالفرنسية بعنوان التحليل البنياني في الألسنيّة والأنتربولوجيا، في مجموعة الأنتروبولوجيا البنيانيّة Paris, Plon, 1958, p.39 - 62.

(3) Paris, PUF, 1949.

وابن الأخت والأب والولد من جهة؛ وبين الأخ والأخت والزوج والزوجة من جهة ثانية؛ ففي كل علاقة عندما يكون أحد الروابط التي تكونه سلطوي وتباعدي يكون الآخر حميماً وحاراً والعكس بالعكس: فمثلاً، عندما تكون العلاقة بين الخال وابن الأخت حميمة تكون العلاقة بين الأب والابن معبِّرة عن السلطوية يظهر إذن وجود نظام شامل يمكنه تركيب العلاقتين المتناظرتين خال ـ ابن أخت/أب ـ ولد، وأخ ـ أخت/زوج ـ زوجة حسب أربعة احتمالات رياضيّة. هذه الاحتمالات نجدها بالفعل في الواقع وتسمح باعتبار الأنظمة الثقافيّة كرموز، تستخدم التصرفات والمواقف والحركات وتقسيمات المكان، وتصنيفات الأشياء، كوسائل للثقافة كافية على غرار اللغة لتكوين نظام مرجعياتها.

إن التحليل البنياني يطل إذن على علم الأعراض للاجتماع أي على دراسة الاجتماع كرمز. بانطلاق هذه المقاربة من الاتنولوجيا سوف يتحقق نموها الكامل في الفترة اللاحقة، خلال العقد السادس[1].

ثانياً ـ الدلالات والمعاني

1) إن المقاربة بواسطة البنى سواء كانت مادية ومحسوسة كما في الوظيفيّة أو مجردة وشكليّة كما في البنيانيّة لديها نقطة مشتركة هي الموضوعانيّة. فيمكن وصفها وتحليلها باستقلاليتها عن الفاعلين وفق إجراءات وضعية. فمن وجهة النظر هذه، ورغم أن التحليل الوظيفي والتحليل البنياني لم يبرزا بصورة كاملة إلاّ خلال هذه الفترة بنوع خاص، إلاّ أن موضوعانية البنى الاجتماعيّة شكلت باكراً عنصراً من علم الاجتماع، قد يجد في قواعد دوركايم حول الموضعة قانونه العلمي.

تسلم هذه الموضوعانية بوجود نظام يختفي وراء الظواهر الموصوفة ويصبح إبراز هذا النظام هدفاً للمعرفة السوسيولوجيّة. ينجم عن ذلك أن المعنى، باعتباره قيماً ونظرات عن العالم وقواعد للعمل يشكل جزءاً من هذا النظام الموجود مسبقاً؛ فالفاعلون الأفراد يستوعبون نماذج للتصرف وتصورات للعمل محددة خارجهم.

---

(1) راجع حول تطور البنيانيّة في مختلف العلوم الإنسانية كتاب O. Ducrot, T. Todorov, D. Sperber, M. Safouan et F. Wahl, Qu'est - ce que le structuralisme? Paris, Le Seuil, 1968.

ولكن هناك خطًا آخر يجوب علم الاجتماع منذ نشأته. إن نقد الواقعيّة التاريخيّة على يد سيمل Simmel، وتعريف علم الاجتماع على أنه «علم النشاط الاجتماعي» على يد ڤيبر Weber تبرز المعنى الذي يعطيه الفاعلون لأفعالهم وفهم عالم الاجتماع لهذا المعنى. إلاّ أن الأمر يتعلق أيضاً في علم الاجتماع الألماني في بداية القرن بالالتزام الإپستمولوجي أكثر منه بتحديد نمط مقاربة خاص: إن ماكس ڤيبر M. Weber يستعين بطرق المؤرخ (البحث عن المصادر وتحليل النصوص) بقدر ما يستعين باستمارة التحقيق التجريبي، ويستخدم سيمل Simmel بكل طيبة خاطر الكتابة الأدبية أو الفلسفيّة.

كان الأمر في الولايات المتحدة معكوساً، ففي فرع مدرسة شيكاغو سوف تظهر برامج تحليل حقيقيّة يمكن تلخيص سماتها المشتركة على هذا النحو:

ـ رفض الموضوعانيّة: إن الاجتماع ليس أمراً معطى بل هو مبني. فنستعيد تعريفاً شهيراً لتوماس وزنانيكي Thomas et Znaniecki، إن الفاعلين هم «الذين يحدّدون الوضع».

ـ رفض التفسير عن طريق الاستعانة بخلفية بنيانيّة أو بمعنى موجود مسبقاً؛ على العكس يحاول عالم الاجتماع إدراك الأواليات الملموسة التي بواسطتها تُبنى الدلالة المعطاة ومعناها؛ فالملاحظة المشاركة والدراسة الدقيقة للحالة، والمقابلة تشكل الطرق الأكثر استعمالاً من أجل مهمة من هذا النوع.

ـ بناء التفاعلات بين الفاعلين ونمط بناء المعنى الذي ينتج عنها كموضوع دراسة مفضل.

وهكذا سينشأ وضعية علمية مختلفة تفضّل وصف حالات التفاعلات الاجتماعيّة على البحث عن البنى المختبئة وراءها وتؤدي إلى ظهور برنامجين أساسيين، «التفاعلية الرمزية»، و«الطرائقيّة الاتنولوجيّة». كما يخترقهما برنامج ثالث من استيحاء فلسفي: التيار الظواهري.

2) يعود تعبير التفاعليّة الرمزية» (Symbolic interactionism) إلى هربرت بلومر Herbert Blumer فهو ينتمي إلى الجيل الثاني في مدرسة شيكاغو، حيث

سيواصل مع إيفرت هيوز Everett Hughes تخليد تقليدها. هذا التقليد يشمل في الوقت نفسه تعاليم توماس Thomas وپارك Park ومن خلال هذا الأخير إلهام سيمل Simmel ـ وتعاليم فيلسوف، هو جورج ميد Georges H. Mead (1863 - 1931) الذي يعطي الأولوية في بناء الشخصيّة والعلاقات الاجتماعيّة للاتصالات ما بين الأفراد[1]. فبين عام 1930 و1940 سوف يتكون في قسم شيكاغو جيل جديد من علماء الاجتماع (أيرڤنغ غوفمان Erving Goffman، هوارد بيكر Howard Becker، أنسلم شتراوس Anselm Strauss...) الذي كوّنت كتبهم ابتداء من منتصف الخمسينات، تياراً حديثاً هو التفاعلية الرمزيّة[2].

لقد كان ممكناً تناول العمل الرائع لإيرفنغ غوفمان E. Goffman (1922 - 1982) لتوضيح الوضع الخاص لبرنامج التحليل الذي تشكله التفاعلية الرمزيّة. ولكن سوف نختار كتاب هوارد پيكر H. Becker لعام 1963، Outsiders، «الغرباء» لبعده النموذجي. إن هذا الكتاب لا يعرض فحسب، بأفضل شكل، نمطاً لفهم وتحليل المعطيات الخاصة بالتفاعليّة الرمزية بل يطور نظرية جديدة عن الانحراف بقطعيّة كاملة مع النموذج الوظيفي المسيطر. سوف يكون لهذا العمل أيضاً تأثير هام بقدر ما سيلقى نجاحاً كبيراً، لكونه أولاً سهلاً ومن ثم، ولهذا السبب، سيصبح إحدى الأدوات الأساسية لنقل ملموس لطريقة في التفكير والعمل.

يجمع هذا الكتاب الذي نشر عام 1963 مجموعة من المحاولات التي وضعت خلال السنوات السابقة. خطرت لهوارد پيكير H. Becker أثناء دراسته في شيكاغو فكرة الجمع بين حبه للجاز (كان يلعب كعازف بيانو في الأوركسترا) والمتطلبات الجامعيّة فقدم لمدرّسه إرنست بورغيس Ernest W. Burgess ملاحظات جمعها حول عازفي الجاز بدل المقابلات التي كان عليه أن يجريها مع

(1) Cf. L'esprit, le soi et la société, 1934, trad. Paris, PUF, 1965.

(2) Cf. B. M. fisher et A. L. Strauss, Interactionism, in T. Bottomore et R. Nisbet (eds), History of sociological Analysis, op. cit., p. 456 - 498; également de J. - M. Chapouilie, la préface àl'édition française de l'ouvrage de Howard S. Becker, Outsiders, 1963. Paris, A. - M Métailié. 1985.

أشخاص مسنين. أجبره هذا على التوجه نحو الاختصاصين في علم اجتماع العمل في القسم، إيفرت هوغيس Everett Hughes. لقد كان هذا أيضاً مدافعاً حمِساً عن طريقة الملاحظة «في بيئتها» المستوحاة بشكل واسع من الأنتروپولوجيا ومتميزة بدقتها عن ممارسات دراسة الحالة الخاصة بالثلاثينات[1]. لقد رأى بيكير Becker نفسه مندفعاً لأخذ عازفي الجاز كموضوع لبحث الجدارة. لقد اختار من هذا البحث مقالين وأعاد نشرهما في Outsiders، بعد عدة سنوات وبعد نيله الدكتوراة، تمكن من العمل في مؤسسة في شيكاغو تهتم بمشاكل الانحراف. فمعرفته لأوساط الجاز سمحت له بإجراء مقابلات مع مدخني الماريجوانا بهذا الشكل وتجميع المواد المستخدمة في Outsiders[2].

لقد كان الانحراف في تلك الحقبة أحد أهم المواضيع للعمل الاجتماعي والبحث السوسيولوجي. لقد أدى إلى ظهور نظريات متعددة من وحي طبي، إحصائي، وسوسيولوجي. إن النقطة المشتركة لمعظم هذه التصورات كانت الموضوعانيّة: كان العمل المنحرف يبدو من الناحية النوعية متميزاً، «منحرفاً جوهرياً»، ناتجاً عن خرق للقواعد. هذه الفكرة تطل بصورة أساسيّة على نظرة وظيفيّة للمجتمع تشكل القواعد عنصر تنظيم له واحترامها شرط للتدامج. إن برنامج البحث المستخلص من مثل هذه النظرة يتكون من التفتيش عن المتغيرات المميزة للانحراف. قام پيكير Becker بقلب هذه النظرة كلياً باستجواب فئة «الانحراف» نفسها:

«إن الجماعات الاجتماعية تخلق الانحراف بتأسيسها قواعد فيتكون الانحراف من خرق هذه القواعد عن طريق تطبيقها على بعض الأفراد وتصنيفهم كمنحرفين. من وجهة النظر هذه، ليس الانحراف هو صفة للعمل الذي ارتكبه شخص بل بالأحرى هو نتيجة لتطبيق الآخرين قواعد وعقوبات على الشخص «المعتدي».

(1) حول هذه النقطة انظر ج. م. شابولي J. M. Chapoulie، ايفرت س. هيوز Everett C. Hughes et le développement du travail de terrain en sociologie, Revue française de Sociologie Vol XXV, n° 4, 1984 p. 582 - 608.

(2) حول هذه النقاط المختلفة أنظر مقدمة J. M. Chapoulie à l'édition française de Outsiders, p. 11 - 13.

فالمنحرف هو من أسبغت عليه هذه الصفة بنجاح والمسلك المنحرف هو المسلك الذي تدرجه المجموعة تحت هذا التصنيف (ص. 32 ـ 33).

هذه المقاربة الجديدة التي تعرف ما اصطلح على تسميته «بنظرية التصنيف»، لا تعتبر الانحراف كنتيجة موضوعية (للخلل) الوظيفي، بل تعتبره كصفة ناتجة عن التعامل بين الجماعة والفرد.

«الانحراف ليس خاصة السلوك نفسه بل هو خاصة التفاعل بين الشخص الذي يرتكب العمل والأشخاص الذين يعارضون هذا العمل» (ص. 38). فالمسألة إذن لم تعد معرفة خصائص الجماعات المنحرفة إحصائياً، بل دراسة المسار الذي من خلاله تتوصل مجموعة من الأفراد والأفعال إلى أن توصف بالانحراف. هذا المسار يتم مع الوقت ويمر بمراحل. إنه يتطلب «نموذجاً تعاقبياً» على غرار دراسات «المهن» التي قام بها هوغيس Hughes في علم اجتماع العمل. إنه يتطلب أخيراً صلة وثيقة مع الأفراد موضوع الدراسة من أجل معرفة طبيعة الوضعيات المتعاقبة في مسار بناء «المهنة المنحرفة» وذلك بواسطة المقابلة والملاحظة.

لقد أعاد بيكر Becker بواسطة مقابلات معمّقة وبواسطة ملاحظة الطقوس التي يستعملها مدخنو الماريجوانا، بناء المراحل التي تقوم جميعها على تفاعلات معينة بين فاعلين معينين (الانخراط في الممارسة، تطور وثبات اهتمامات جديدة، الوسم والتصنيف، تكوّن هوية اجتماعيّة منحرفة): فهو يبيّن أنه إذا بدأنا ممارسة التدخين للمرة الأولى بدافع الفضول أو الاعتياد أو التحدي لا نواظب على هذا الشيء إلاّ من خلال العلاقة مع الأخرين الذين يدربون المبتدئين على التعرف إلى أحاسيسه، وعلى أن يحبها وعلى القيام بالحركات الضرورية... ففي هذه المرحلة، كما في المراحل الأخرى استند التحليل على مادة جديدة من نوعها فتحت خطاب علم الاجتماع على كلام كان يجهله منذ زمن طويل:

«كنت أدخن كما لو كانت سيجارة عادية، قال لي: «لا، ليس بهذا الشكل»، ثم أضاف: تمتص دخانها، تبتلعه، ثم تحتفظ به في رئتيك إلا أن... لفترة من الزمن»، فسألت: «كم من الزمن»؟ أجاب: «ما عليك سوى الاحتفاظ به إلى أن تشعر بالرغبة بقذفه فتقذفه»، وهذا ما قمت به ثلاث مرات أو أربعاً» (جزء من

مقابلة) (ص. 69) الصفة. إن نظرية التصنيف (يكون منحرفاً من ضمن تفاعلات معينة مع الآخرين) لهي صيغة تعبّر بقوة عن القطع مع الموضوعانيّة ولكن هذه الأخيرة ليست فقط وجهة نظر طرائقيّة خاصة. فهي تخفي أيضاً تقييماً مألوفاً عن العالم مفاده: يقوم الأشخاص الاجتماعيون باستمرار بتصنيف ووصف محيطهم والأوضاع التي تصادفهم باستخدام طرق نظر وتفكير تبدو لهم كتحصيل حاصل. ولكن هذا «التحصيل الحاصل» له دور مجتمعي حاسم. إنه يؤمن نوعاً من تعميم الاجتماع إنه الذي بواسطته أشارك الغير وضعاً معيناً. إنه مجموعة الافتراضات غير الواعية التي بواسطتها يصبح الفعل من أجل الغير (حسب تعريف ماكس ڤيبر M. Weber للنشاط الاجتماعي) ممكناً. فرفض الموضوعانية يؤدي إلى التساؤل عن هذا التحصيل الحاصل. لكن هذا المنحنى الذي تستخدمه التفاعلية يطال أيضاً من وجهة نظر معينة كل المرحلة التي ندرسها ليؤدي في نهايتها إلى ظهور التعبير الأكثر جذرية عنها وهي: الطرائقيّة الاتنولوجيّة.

3) إذا كان العمل التأسيسي للطرائقيّة الاتنولوجيّة يعود إلى عام 1967 ويظهر بالتالي خارج هذه الفترة، ففي الواقع إن هذا التاريخ يميز ظهور التيار الذي تكوّن في النصف الثاني من الخمسينات[1] والذي جذوره الفلسفيّة بالأخص هي سابقة إن مشكلة الانضمام إلى عالم الذات طرحت في الفلسفة من قبل هوسرل Husserl. إلاّ أن الفكرة الخاصة بالظواهرية بكون العلاقة الأصلية مع العالم، السابقة للتفكير - ما قبل التفكير - تؤمن المعنى المعطى لهذا العالم من قبل الذات، كان بإمكانها أن تطرح من زاوية لم تعد وجهة نظر نظرية المعرفة وإنما نظرية علم الاجتماع لتكوين العالم الاجتماعي من أجل الذات الاجتماعيّة. لقد كرّس أحد تلامذة هوسرل (Husserl)، ألفرد شوتز (1899 - 1959) Alfred Schutz نفسه بالتحديد لهذه المهمة التي في الوقت نفسه كانت تحث على إعادة قراءة ڤيبر Weber على ضوء الظواهرية. لقد كان شوتز Schutz لاجئاً في الولايات المتحدة منذ عام 1939، ولم يحصل إلاّ في آخر حياته على منصب جامعي[2] هذا ما يفسر بلا شك التأثير الذي

---

(1) Voir A. Coulon,l'ethnométhodologie, Paris, PUF, "Que sais - je?", 1987.

(2) نشرت كل أعمال شوتز Schutz باستثناء أطروحته Der Sinnhafte Aufbau der sozialen Welt، فيينا، 1932 والعديد من المقالات، نشرت كل أعمال شوتز بعد وفاته. كتابه لعام 1932 لم يترجم في -

نما خاصة بعد وفاته بواسطة طلابه القدامى بنوع خاص بيتر برجير Peter Berger وتوماس لوكمان Thomas Luckmann[1].

إن الطرائقيّة الاتنولوجيّة تشكل الاتهام الأكثر جذرية للموضوعانيّة كتب هارولد غارفينكل Harold Garfinkel (1917). في توطئة كتابه التأسيسي:

«عندما نمارس علم الاجتماع بلا خبرة أو بامتهان، كل استناد إلى «العالم الواقعي» حتى ولو كان يتعلق بأحداث مادية أو بيولوجيّة هو استناد إلى النشاطات المنظمة للحياة العادية. نتيجة لذلك على عكس دوركايم الذي تعلّم بعض صيغه بأن الحقيقة الموضوعيّة للوقائع الاجتماعيّة هي المبدأ الأساسي لعلم الاجتماع، نؤكد على سبيل سياسة البحث أن الحقيقة الموضوعيّة للوقائع الاجتماعيّة باعتبارها تحقيقاً لنشاطات متفق عليها في الحياة العادية - مع العلم أن الأعضاء يعرفون الطرق البارعة لتحقيقها ويستخدمونها ويعتبرونها كتحصيل حاصل - هي ظاهرة أساسية بالنسبة إلى الأعضاء الذين يمارسون علم الاجتماع. إذ بقدر ما يتعلق الأمر بالظاهرة الأساسيّة لعلم الاجتماع التطبيقي فهي تحلل النشاطات اليوميّة باعتبارها الطرق التي يستعملها الأعضاء لجعل هذه النشاطات نفسها عقلانيّة - ظاهرياً - ويمكن نقلها - من أجل - أهداف - عملية، أي جعلها قابلة للوصف (accountable) على اعتبار أنها تنظيم للنشاطات العادية اليوميّة»[2].

هذا النص يشكل البيان لبرنامج بحث سيستمر في التكوين ابتداء من منتصف الخمسينات. فهو يعارض موضوعيّة البنى والوقائع الاجتماعيّة «بالتحقيق الدائم للنشاطات المتفق عليها في الحياة العادية» دالاً بذلك على أن الحقيقة الاجتماعيّة

- الولايات المتحدة إلاّ عام 1967 وما زال بانتظار أن يترجم في فرنسا. الأعمال المنشورة بعد الوفاة هي مجموعات لمقالات (Collected Papers) أو لمراسلات. بعض النصوص تم جمعها في طبعة فرنسية، Le chercheur et le quotidien, Paris, Méridiens Klincksieck, 1987.

(1) Cf. La construction sociale de la réalité, 1966, trad. Paris, Méridiens Klincksieck, 1986.

(2) H. G. Garfinkel, Studies in Ethnomethodology, Englewood Cliffs, NJ Prentice Hall, 1967. Ttad. in Arguments ethnométhodologiques, Centre d'Etude des Mouvements sociaux, EHESS, Paris, 1985, p. 6.

ليست «معطى» بل هي الناتج لنشاط أعضاء المجتمع إن هذا النشاط ليس نشاطاً إنتاجياً بالمعنى اليومي المادي للكلمة، بل هو مجموع «الروتين» والتحصيل الحاصل الذي تبنى بواسطته الأوضاع اليومية للفاعلين أو لمن يسميهم غارفنكل Garfinkel «الأعضاء»: تكوين صف، حضور درس، تعبئة طلب رسمي، الاتفاق على من سيجلب الطفلة عند خروجها من المدرسة. . . هذا «الروتين» لا يحيل إلى قواعد قائمة مسبقاً، بنيانية أو ثقافيّة ولا إلى معنى من خارج الوضع يتوجب على علم الاجتماع أن يعيد بناءه؛ بل يظهر في الخطاب المباشر للأعضاء الذي هو في الوقت نفسه خطاب يصف - يعرِّف - يبرِّر، حسب المعاني المختلفة للكلمة الانكليزيّة account.

«سأذهب لإحضار الطفلة هذا المساء من المدرسة لأن لدي غداً اجتماعاً». إن بياناً من هذا النوع بإسناده إمكانيّة حاليّة على عدم إمكانيّة لاحقة يبين في نفس الوقت القاعدة لوضعيّة متقاسمة: سأذهب هذا المساء لأنني غداً مشغول، - لأنني إذن لن أستطيع - وبسبب هم تبادلي (القاعدة الكامنة)، سأقوم هذا المساء بما أنتظر منك أن تقوم به غداً (القاعدة نفسها).

ـ ولأن عدم إمكانيتي غداً لا يمكن الشك بها (تبرير). من السهل أن نرى هذا الحوار يستمر: «نعم، يا عزيزي، على كل حال سوف تتذكرني، الأسبوع القادم». إن مثل هذا التبادل[1] يظهر ميزة أخرى أساسيّة لما تسميه الطرائقيّة الاتنولوجيّة أيضاً «التفكير العملي للأعضاء»: القياسية. إن الأمر يتعلق - إثر ما تعنيه الألسنيّة بهذا - بعلاقة كل بيان مع سياقه البياني: فكما أن بيان «خذْ» لا معنى له إلاّ في وضع حيث أناول الغير شيئاً ما مثلاً، كذلك فالحوار السابق - الذي كان بإمكانه أن يكون أكثر اختصاراً أيضاً - لا يأخذ معناه إلاّ بالعودة إلى الوضعية التي يتقاسمها الأعضاء.

سمحت هذه اللغة بتطوير برنامج بحث خاص، مخصص للقضاء المنهجي

(1) حيك هذا الحوار من عدة أجزاء من أجل حاجات البحث. ونجد نموذجاً مشابهاً ولكن حقيقي، في كتاب غارفينكل Garfinkel (p. 25 - 26).

على التبادل الألسني المسجل مسبقاً: تحليل الأحاديث[1]. وفي الوقت نفسه ظهرت الطرائقيّة الاتنولوجيّة كطريقة شديدة القوة لدراسة أوضاع اجتماعيّة متعددة، حيث الصورية الظاهرية تخفي الانتاج المتواصل بفضل لعبة التحصيل الحاصل والبيانات ـ التبريرية التي يستخدمها الأعضاء في إدارتهم لهذا الانتاج: عمل هيئة التحكيم في المحكمة، عمل لجنة التعيين، مناقشة أطروحة. . . إن الدراسة الشهيرة التي خصصها غارفنكل Garfinkel للمحلفين الذين سجل مداولاتهم، تظهر أن القواعد المتوقعة والمنصوص عنها مسبقاً لأخذ القرارات تستبدل بقواعد مبنية تدريجاً مع سير الجلسة من خلال التفاعلات والخيارات التي تؤدي إليها والتي بواسطتها يبني المحلفون الواقعة موضوع الحكم ويأخذون القرار المتوافق مع الكفاءة بالمعنى العام التي وفقها «كل عضو اجتماعي كفوء يعلم ما يعلمه كل عضو».

فالمقاربة الطرائقيّة الاتنولوجيّة تتجه بقوة نحو طرح الاجتماع كإشكاليّة وهي قد تكون في علم الاجتماع التيار الذي يدفع إلى أقصى حدّ الابتعاد الضروري لإدراك «التحصيل الحاصل» كنتيجة لبناء اجتماعي محدد. من المهم في هذا الخصوص التفكير بدور «الآخر» في معرفة الاجتماع: وهو موضوع طرحه سيمل Simmel كما طرحه شوتز Schutz في نصوصهما الشهيرة، فالمتوحش في القرن الثامن عشر[2]، والبروليتاري في القرن التاسع عشر والأجنبي في القرن العشرين هم كذلك فاعلون بإمكانهم طرح الأسئلة على الاعتباطي من الداخل أو بعبارات الطرائقيّة الاتنولوجيّة ـ على قياسية طرق الوجود والعمل لأعضاء مجتمع معين. إن آينيس Agnés، الفتاة التي ترغب بتغيير جنسها والتي تناولها غارفينكل Garfinkel بالدراسة، تظهر في الحيل المتعددة التي من خلالها عليها أن تعبّر يومياً عن التحصيل الحاصل لمسلك أنثوي هو بالنسبة إليها «غير طبيعي»، إنها تظهر كوجه جديد وجذري في مشروع هذا الهدم للمعطى الاجتماعي[3].

---

(1) طوّر التحليل التحاوري هارفي ساكس انطلاقاً من الستينات (راجع A. Coulon, L'ethnométhodologie, op. cit, p. 65) يمكن إيجاد مثل على هذه المقاربة في مقال لساكس: على جميع الناس أن يكذبوا، 1968. ترجمة Communications عدد 20، سنة 1973 ص. 182 ـ 203.

(2) H. Garfinkel, Studies in ethnomethodology, op. cit., chap. IV, p. 108.

(3) لقد خصص غرفينكل Garfinkel لحالة آنييس Agnès الفصل الخامس من كتابه. هذه الدراسة علق ـ

ثالثاً ـ الزمن والتاريخ

إن الفترة التي قمنا بدراستها ليست الأكثر غنى، إنها في كل الأحوال مثقلة بالشكل الأكثر مأساوية بالأحداث التاريخيّة: فثورة 1917 وصعود الفاشيّة، وحرب إسبانيا والستالينيّة والحرب العالمية الثانية ومعاهدة يالطا وقيام الاشتراكيّة في الصين والحرب الكورية وبداية حركات التحرير الوطني هي لحظات كافية لطبع وعي الزمن بصورة عميقة. غير أن المفارقة هي أن علم الاجتماع على عكس الفلسفة أو الأدب (مالرو Malraux همنغواي Hemingway دوس پاسوس Dos Passos، سارتر Sarte، مرلو پونتي Merleau - Ponty، كامو Camus . . .)، بقي صامتاً بشكل غريب. علم الاجتماع الفرنسي بسبب ضعفه المؤسسي بلا شك؛ علم الاجتماع الانكليزي والأميركي بسبب ابتعاده، علم الاجتماع الألماني وحده وضع التاريخ، كبعد أساسي لفهم الاجتماع في الفترة الضيِّقة التي سبقت وصول هتلر Hitler إلى الحكم.

فلوضع مجتمع معين ضمن المنظور التاريخي يتهيأ لعالِم الاجتماع، بعد الحرب العالميّة الأولى، ثلاثة نماذج نموذج التطورية، ذو الشهرة الواسعة في القرن السابق، نموذج الماركسيّة الموضوع في الواجهة مع ثورة 1917 ونشوء الحركة الشيوعيّة الأمميّة؛ وأخيراً نموذج الاتنولوجيا، المبني على التعارض بين المجتمعات التقليدية والمجتمعات الحديثة. إن أيًا من هذه النماذج الثلاثة ليس في الحقيقة مرضياً: إن المذبحة الكبيرة في أعوام (1914 ـ 1918) وجّهت الضربة القاضية إلى الطرح التقدمي الذي كان يدعم التطوريّة؛ والروابط الوطيدة بين الماركسيّة والجهاز السياسي للأممية الثالثة، والالتزام النضالي، للأحزاب الشيوعيّة الفتيّة يجعل استخدام المرجعيّة الماركسيّة مع الوقوف على مسافة منها «صعباً»؛ فالتعارض بين التقليد والحداثة الذي يكثر استخدامه في علم الاجتماع الأميركي من وجهة نظر ثقافوية، لأوسع بكثير من أن يتمكن من التفكير بخصوصية الوضع التاريخي.

- عليها بنوع خاص لويس كيريه L. Quéré (in W. Dressler - Holohan et al, l'identité du pays à l'épreuve de la modernité, Centre d'Étude des Mouvements sociaux, EHESS, Paris, 1986, p. 53- 58) . وريمي هسّ Remi hess, Quel corps pour Agnès?, n° 32 - 33, 1986, p. 44 - 52 .

في هذا السياق تشكل مدرسة شيكاغو الاستثناء الذي يقدر ما هو ساطع هو مبهم بتبنيها برنامجاً قوامه طرح الأسئلة على الحداثة على ضوء التقليد الفلسفي المنبثق من هيجل Hegel.

لقد نشأت بمبادرة جامعي مناصر للآداب والعلوم هو فيليكس ڤايل Felix J. Weil، تحت راية التفكير الماركسي المستقل. كان هذا الأخير قد جمع عام 1922 خلال أسبوع «عمَل ماركسي» العديد من الفلاسفة والمثقفين من أمثال جورج لوكاكس G. Lukacs كارل كورش Karl Korsh وكارل أوغوست ويتفوغل Karl August Wittfogel، الخ، من ثم وضع مشروعاً لمعهد الماركسيّة (Institut Für Marxisms)؛ وهذا المعهد عليه أن يكون مستقلاً من الناحية المادية - خصوصاً بفضل دعم عائلة ڤايل - وفي الوقت نفسه مرتبطاً بالجامعة. لقد رأى هذا المعهد النور عام 1923، بالتعاون مع جامعة فرانكفورت الفتية، وتعمد تحت اسم أقل عرضة للشبهة: معهد الأبحاث الاجتماعية (Institut für Sozialforschung)[1].

لقد جمع هذا المعهد عدداً معيناً من المثقفين والفلاسفة وعلماء الاجتماع والاقتصاديين والمحللين النفسيين الذين كان مشروعهم المشترك بتخطّيهم الانغلاق الماركسي الدوغمائي هو التفكير بأزمة العالم الحديث، وثقافته وإيديولوجياته. فمع ماكس هوركهايمر (1895 - 1973) Max Horkheimer الذي تسلّم إدارة المعهد عام 1931 تأكد برنامج فريد من نوعه: بانطلاق هوركهايمر من الفلسفة الاجتماعيّة ومن مشكلة الشموليّة التي تنبثق منها ابتداء من التقليد الهيغيلي (أي التفكير بوضع تاريخي خاص على أنه لحظة من صيرورة الكائن الشامل)، يؤكد على الضرورة الجديدة لربط التفكير الفلسفي والبحث التجريبي. بهذا، لا يحدد، كما سيفعل مرتون Merton لاحقاً، ضرورة وحدة النظرية والتجربة داخل علم الاجتماع، ولكن بشكل واسع وحدة ارتباط إشكاليات الفلسفة الاجتماعيّة وطرق العلوم الاجتماعيّة الملموسة.

(1) Cf. M. Jay, L'imagination dialectique. Histoire de l'Ecole de Francfort (1923 - 1950), Paris, Payot, 1977, chap. I. Egalement, R. Wiggershaus, Die Frankfurter Schule, Múnich - Vienne, Hanser, 1987.

«يتعلق الأمر اليوم، خاصة (. . .) بتنظيم تحقيقات على قاعدة التساؤل الفلسفي الحالي ينضم إليها الفلاسفة وعلماء الاجتماع والاقتصاديون، والمؤرخون وعلماء النفس في عمل مشترك مستديم، من أجل القيام معاً بما يمكن القيام به في المختبر منفردين في مجالات أخرى، لإنجاز ما قد أنجزه الباحثون الأصليون: ولمزيد من الدقة من أجل متابعة الأسئلة الفلسفية الكبرى التي هي أسئلتهم بواسطة طرق علمية، ولتوضيح وتغيير الأسئلة وفق الموضوع أثناء سير العمل، ولإيجاد طرق جديدة ولكن دون نسيان الكائن الشامل»[1].

إن الهم المثلث في مفصلة باحثين ومفكرين من مجالات مختلفة مع أعمال تجريبيّة دقيقة حول إشكالية فلسفيّة مشتركة من وحي ماركسي ـ سيطلق عليها اسم «نظرية النقد» ـ يشكل برنامجاً فريداً من نوعه في تاريخ علم الاجتماع. إن مضايقات النفي وصعوبة المباشرة في أعمال تجريبية ـ رغم دراسات ناجحة شهيرة كالدراسة التجريبيّة حول الشخصية السلطوية[2] ـ وتنوع اهتمامات أعضاء المدرسة والدور المسيطر للمقاربات الفلسفية لفلاسفة أمثال ثيودور آدورنو Théodor Adorno، وهربرت ماركوز Herbert Marcuse هؤلاء الممسوخ للمرجعيّة الماركسية في عهد الستالينيّة المسيطرة، كل هذه العناصر تجتمع لتضع تيار مدرسة فرانكفورت على هامش علم الاجتماع ولتثير أحكاماً أحياناً جد سلبية كحكم جوليان فروند Julien Freund:

«مع الأخذ بعين الاعتبار كل الأمور، ورغم أن هذه المدرسة ساهمت في تقدم البحث السوسيولوجي خاصة في المرحلة الأميركيّة (أي في مرحلة النفي)، إلاّ

(1) M. Horckheimer, La situation actuelle de la philosophie sociale et les tâches d'un institut de recherches sociales, 1931, trad. in Théorie critique, Paris, Payot, 1978, p. 67 - 80.

(2) أثناء المرحلة الألمانية قام المعهد بدراسات متعددة حول الطبقة العاملة والعائلة لم ينشر منها إلاّ بعض الأجزاء وخاصة تلك المتعلقة بموضوع السلطة Studien über Autorität und Familie, Paris, 1936). وأهم دراساته جرت في الولايات المتحدة في جامعة كولومبيا حيث أقام أثناء فترة نفيه. وأخذت من جديد على وجه الخصوص موضوع العلاقة مع السلطة الذي حاول بواسطته أعضاء المعهد فهم تأثير الدعاية النازية على الطبقة العاملة الألمانيّة (T. W. Adorno et al, the Authoritarian Personality, New york, 1950).

أنها جعلت علم الاجتماع العلمي يسير في طريق مسدود. لقد استفاد أعضاؤها من مكانة علم الاجتماع ليقدموا رسالة فلسفيّة للغاية. هذا مثل نموذجي حاليًا إلى حد ما عن إفساد علم الاجتماع العلمي بأفكار يكون هدفها أحياناً هو غير هدف البحث العلمي البحت»[1].

إن قساوة هذا الطرح يعود بلا شك بدرجة كبيرة إلى الدور الذي لعبته النظرية النقديّة في بعض الحركات الراديكاليّة في نهاية الستينات. إلاً أن إمكانيّة الاستفهام في مدرسة فرانكفورت تبقى وتمس صميم معرفة الاجتماع. رغم أنه لم يحدث أبداً لقاء بين دوركايم وڤيبر إلاً أن جزءاً كبيراً من تراثهم جرت، بعبارات أخرى، مناقشته في ألمانيا عام 1961 أثناء لقاءات توبنجن Tübingen التي نظمتها الجمعية الألمانيّة لعلم الاجتماع.

وعن السؤال التقليدي حول أي نمط من العلماوية يجب أن يعود علم الاجتماع إليه، أعطي جوابان أساسيان ليس من قبل علماء اجتماع بل من قبل فيلسوفين هما: آدورنو Adorno وپوپر Popper. إن نوعية إثباتهما وتاريخ مناقشتهما يمكنهما أن يأخذا قيمة نموذجيّة للغاية: ففي الوقت الذي يبدو فيه علم الاجتماع مبنياً أساساً في مقارباته وبرامجه الأساسية يبرز السؤال المعضلة الشّامل حول وضعه: فعلى آدورنو Adorno الذي يؤكد أنه إذا كان البحث التجريبي يدرس الظواهر في خصوصيتها فالبناء المفهومي للجوهر وحده ككل يمكنه أن يعطيها معنىً، يعارض پوپر Popper بوحدانيّة المنطق العلمي المبني على الاختبار التجريبي لبناءات نظرية مسبقة[2].

---

(1) J. Freund, German Sociology in the time of Max Weber, in T. Bottomore et R. Nisbet, A history of sociological Analysis, of. cit, p. 184 - 185.

(2) T. Adorno et K. Popper, De Vienne à Francfort, la querelle allemande des sciences sociales, 1969, trad. Bruxelles, Ed. Complexe, 1979.

الفصل الخامس

«علم اجتماع لعالم واحد: الوحدة والتنوع»[1]

«Sociology For one word: Unity and Diversity»

منذ أواسط الخمسينات حتى يومنا هذا تبدأ بالنسبة لعلم الاجتماع مرحلة جديدة تختلف حدودها الأوليّة حسب الخصوصيات القومية ولكن تختصرها جيداً بعض الكلمات ـ المفاتيح: توسع، تفريع، بيروقراطيّة، تدويل، خيبة أمل. . . عصر النضج، بلا أدنى شك، لم يميزه أي «اختراع» جديد لبرنامج؛ عصر الحكمة والسكينة؟ لا شيء يسمح بتأكيد ما جاء عن حقبة تتميز على شاكلة التاريخ العالمي بالالتباس: فإذا عرف هذا التاريخ في وقت واحد الحرب الباردة والتعايش السلمي، حركات التحرر الوطني وصعود التوتاليتاريّة، وانهيار النظام الاشتراكي الأوروبي والانكفاء على المحاسن الخفيّة لديموقراطيّة سقيمة، وعودة الأصوليين الدينيين ونهاية الغد السعيد فإن علم الاجتماع دون أن يكون، في شيء، الانعكاس لهذه الانتفاضات إلاّ أنه يعبر عنها بتغيّر حرّ: فتأسيسيته تتعزز، وارتباطات متعددة تقويّه وفي الوقت نفسه مهماته وقطاعات أبحاثه وأماكن نشاطه تتعدد وتفترق: فيضاف إلى خطورة تشتت أساليب هي متجاورة أكثر من كونها مندمجة، تشكيليّة إيستمولوجيّة جديدة تجد في أسئلة علوم الطبيعة نفسها غذاءً جديداً ويمكنها أن تصل، تحت شعارات ما بعد الحداثة إلى إعادة النظر الجذرية في المشروع السوسيولوجي كمشروع علمي.

أولاً ـ مهنة عالم الاجتماع[2]

إن الفترة التي بدأت منذ الستينات تميزت ببروز مهنة ـ نشعر أننا مدفوعين

(1) «علم اجتماع لعالم واحد»، موضوع المؤتمر العالمي الثاني عشر لعلم الاجتماع، الجمعية الدولية لعلم الاجتماع، مدريد، 1990.

(2) كصدى لعنوان كتاب ب. بورديو P. Bourdieu، ج. س. شامبوردون J. C. Chamboredon، وج. س. باسيرون J. C. Passeron، الذي ظهر عام 1968 (Ed. Mouton)، الذي يشكل من وجهة نظر معينة، أول كتاب نصوص Textbook في علم الاجتماع الفرنسي.

إلى القول مهن ـ عالم الاجتماع. فإذا كانت هذه المهنة قد تحققت في الولايات المتحدة بعد الحرب العالميّة الأولى، فهي تخص هذه المرة مجمل البلدان المتقدمة وتتطال أبعد منها، أي بلدان أميركا اللاتينيّة وأفريقيا وآسيا. يبدو أن مسار التأسيسيّة جرى على مرحلتين، المرحلة الثانية ليست موجودة بشكلها الكامل إلاً في البلدان الأكثر تطوراً: في البداية تجذر جامعي قوي ومتفرع مروراً بتكوين أقسام مستقلة لعلم الاجتماع وبتغذية إعداد مهني متنوع ليطبق على قطاعات نشاطات محددة: عمل اجتماعي، صحة، نشاطات الجمعيات، التنظيم المدني، إدارة الموظفين، الخ. ومن ثم تكوين تدريجي خارج الإطار الجامعي لكفاءات مهنية من نمط سوسيولوجي ـ مكاتب دراسات واستقصاءات، علماء اجتماع في المؤسسات، علماء اجتماع في مكاتب التنظيم المدني، علماء اجتماع للمصالح المركزية للإدارات والمنظمات الكبرى. . . . ـ فتدخل في تنافس في سوق العمل مع حاملي شهادات علم النفس والاقتصاد وكذلك الحقوق[1].

إن حالة فرنسا لمعبرة جداً دون أن تكون نموذجيّة للغاية. لم يكن يوجد عام 1956 إلاً خمسة مقاعد جامعية لعلم الاجتماع. شهدت فترة ما بعد الحرب تأسيس أول مختبر لعلم الاجتماع هو مركز الدراسات السوسيولوجيّة أنشئت عام 1958 شهادة الإجازة في علم الاجتماع وظلت طوال عشر سنوات تمنح تقريباً بصورة حصرية في باريس. ولكن بين 1968 ـ 1970 نحصي 200 مدرساً وباحثاً و27 مركزاً أو فريقاً. إن الإصلاح الجامعي الذي نجم عن أحداث أيار 1968 سمح بإنشاء أقسام وجماعات مستقلة لعلم الاجتماع في الجامعات الكبرى. وبعد عشرين سنة كان تعداد فريق علم الاجتماع الفرنسي حوالي 800 مدرساً وباحثاً مؤسسياً و350 فريقاً منها 90 ملحقة بالمركز الوطني للأبحاث العلمية CNRS. عام 1989 ينشأ 20 نوعاً من شهادات الدراسات المعمقة (D. E. A) في الجامعات وتضم أقل بقليل

(1) من أجل المزيد من التفاصيل حول هذه النقطة: R. Sainsaulieu, La profession de sociologue en France, in H. Mendras et M. Verret, Les champs de la sociologie française, Paris A. Colin, 1980, p. 247 - 256; H. E. Freeman (ed.) Applied Sociology, San Francisco, Jossey - Bass p. 1983 - 1988

من 700 طالب[1] من مستوى البكالوريا + 4 وفي الوقت نفسه ينشأ عام 1982 رابطة مهنية لعلماء الاجتماع تهدف إلى «تنظيم مهنة عالم الاجتماع»، خاصة بواسطة تكوين جهاز بطاقات ونشر دورية منتظمة. لقد عرفت بلدان أخرى تطوراً أهم بكثير. وهذه هي حالة ألمانيا مثلاً، فبعد الجمود النازي عاد علم الاجتماع إلى التكون تدريجاً، لقد ألحق في البداية بأقسام الفلسفة والاقتصاد وفي الوقت نفسه استقل وانتشر في مختلف المدارس الكبرى: لقد قدر تطوره بين 1960 و1970 بالانتقال من 35 إلى 190 وظيفة تدريس ومن 150 إلى 700 وظيفة أخرى[2]. ومعدل نموه بين 1960 و1981 هو الأعلى بما لا يُقارن في العلوم الاجتماعيّة: 2681٪ بالنسبة إلى الجهاز الأكاديمي (مقابل 593٪ كمعدل وسطي) أي عدداً من 1290٪ مدرساً وحوالى 2000٪ بالنسبة إلى الطلاب (مقابل 335٪)[3]. في الولايات المتحدة يقدر عدد علماء الاجتماع عام 1988 بـ 20000[4]. أخيراً خلال هذه الفترة ارتبط التوسع بصورة خاصة بالطلب الاجتماعي القوي جداً والذي تجسد في مختلف البلدان المتطورة في تأسيس أواليات متنوعة لتمويل برامج كبرى في البحث السوسيولوجي.

---

(1) حول تطور علم الاجتماع بعد الحرب أنظر أ. دروارد A. Drouard, Le développement des sciences sociales en France au tournant des années 60, Paris, CNRS, 1983
من أجل الوضع الحالي يمكن مراجعة دليل الأبحاث في المركز الوطني للأبحاث CNRS ووزارة التربية أخيراً أصدرت الجمعية الدولية لعلماء الاجتماع باللغة الفرنسية والجمعية الفرنسية لعلم الاجتماع والجمعية المهنية لعلماء الاجتماع عام 1988 دليلاً لعلم الاجتماع الفرنسي، والناطق بالفرنسية (Paris, CNRS).

(2) Source R. Lepsius, Die Entwicklung der Soziologie nach dem Zweiten Weltkrieg 1967, p. 49, in G. Lüschen (ed), Deutsche Soziologie seit 1945, Kölner Zeitschrift für Soziologie und Sozialpsychologie, vol. 21, 1979, p. 25 - 71.

(3) Source L. Viehoff, Zur Entwicklung der Sociologie an den Hochschulen der Bundesrepublik Deutschland von 1960 bis 1981, Zeitschrift für Soziologie, vol 13, 3, 1984, p. 264 - 272.

(4) المصدر هو الخطاب الرئاسي لهربرت غانس Herbert J. Gans في الجمعية الأميركية لعلم الاجتماع، The discipline and the public, American Sociological Review, : Sociology in America Vol. 54, n°, 1989, p. 1 - 19.

إن التطور المتزامن للتعليم وللبحث المموّل سوف يكون له تأثير حاسم في إعداد وتقنين مختلف طرق وتقنيات البحث. وبينما كانت هذه الأخيرة تطبق بشكل واسع في الولايات المتحدة كان الأمر مختلفاً في أوروبا حيث كانت التقاليد القديمة ترتبط بحياء بعلم الاجتماع التجريبي ذي الوحي الأميركي؛ فالتحقيقات الأولى بعد الحرب تشهد بوضوح، خاصة في فرنسا، على الانتقال من نموذج إلى آخر، من «صيغة بحث» إلى أخرى[1]: إن دراسة التحقيقات الأولى الكبرى الفرنسية كما بعد الحرب تبرز ابتداء من دراسة الوثائق والملاحظة «في مكانها» إلى الصيغة التي تستخدم تقنيات التحقيق الأميركيّة (استمارات، مقابلات، تقاطع المتغيرات). فالتأثير الأميركي واستيعاب لغة البحث التجريبي سيبرزان أكثر فأكثر بصورة واضحة فيما بعد ويؤديان مثلاً إلى أطروحة ريمون بودون Raymond Boudon عن التحليل السببي عام 1967[2] ويستحثان تفكيراً إبستمولوجياً مطلعاً وناقداً في الوقت نفسه داخل مركز الدراسات السوسيولوجيّة[3].

وبشكل أكثر عموميّة يمكن أن نعتبر أن الفترة التي تلت أواسط الخمسينات شهدت مع تفاوتات وانحرافات وتداخلات متغيرة حسب البلدان، تحقُّق التسلسل التاريخي التالي: التعميم والتصنّع في الطرق الكمية المنبثقة من التقليد التجريبي الأميركي؛ معارضة هذه الطرق نفسها والعودة إلى تقنيات نوعيّة، كالملاحظة الإتنوغرافية، والتحقيق في سيرة الحياة، وتحليلات المحتوى من النوع اللفظي أو من نوع علم الدلالة؛ التكوين بفضل المساهمة الحاسمة بنوع خاص لوسائل جديدة لتسجيل ومعالجة المعطيات (كالمسجلات وكاميرات الفيديو والميكرو والماكرو

---

(1) إن تعبير «صيغة بحث» أدخله جان ميشال شابولي Jean Michel Chapoulie في «التأسيس الثاني لعلم الاجتماع الفرنسي، الولايات المتحدة والطبقة العاملة»، مداخلة في المؤتمر العالمي الثاني عشر لعلم الاجتماع، مدريد، 1990، p. 1.

(2) L'analyse mathématique des faites sociaux, Paris, plon, 1967.
ريمون بودون R. Boudon على غِرار بعض علماء الاجتماع الذين سيهيمنون على علم الاجتماع الفرنسي لتلك الفترة اجتاز بالاتجاه المعاكس لعلماء الاجتماع الأميركيين في أول القرن وأنجز تدريباً له تحت إشراف پول لازرسفلد P. Lazarsfeld في قسم علم الاجتماع في جامعة كولومبيا.

(3) هذه الفكرة جرى التعبير عنها في مجلة Epistémologie sociologique، بإدارة بيار نافيل P. Naville الذي سوف ينشر، كراساً بسيطاً أو مجموعة من عام 1964 إلى عام 1973.

معلوماتيّة) وبفضل الإمكانيات المتضاعفة للتحليلات والاتصالات الداخلية المنفتحة بهذا الشكل، بنوع من الأرض المفتوحة (No man's land) من التقنيات والأدوات العالميّة حيث يستقي كل واحد منها ما يشاء ويدخل الأدوات الجديدة الناشئة عن تطور المجالات المجاورة: الإحصائيات، نظرية الألعاب، تحليل القرار، قياس الألفاظ، علم دلالات الأعراض، التحليل بالمعلوماتيّة لحقول علم الدلالة... داخل هذا المجموع تتعايش «صيغ بحث» متنوعة، أي تآلفات تمارَس بشكل أكثر تكراراً وتميز بنوع خاص مجموعات فرعيّة محددة مثل «برامج البحث» الكبرى التي وصفناها سابقاً أو بعض ميادين الدراسة. ولكن هذا يمكنه أن يتلاقى أيضاً مع انشطارات قومية: فعلماء الاجتماع الأنكلوسكوسونيون يفضلون استخدام تقنيات الإحصاء الاستدلالي ويعطون الأهمية لوضع العلاقات بين عدد محدود من المتغيرات موضع الاختبار وفق نموذج رياضي مسبق، بينما تفضل المدرسة الفرنسيّة استخدام تحليل العوامل للتطابقات التي تسمح بإسقاط عدد كبير من أشكالها على إحداثيات عموديّة. إن هذا الاختبار التفاضلي للطرق الذي ينجم عنه نمط متمايز من بناء ومقارنة المتغيرات[1]، يندرج في الوقت نفسه في التقاليد الرياضية وفي محتويات التدريس الخاص بالبلدان المعنية. ويطرح من جديد المشكلة الإپستمولوجيّة في مقارنة نتائج معالجة جسم واحد من المعطيات بواسطة طرق مختلفة[2]. وبصورة أعمق، إنه يلتقي مع مسألة الموضوعيّة والقياس في علم الاجتماع.

إن نتيجة مثل هذا التطور هي ممارسة متعددة لعلم الاجتماع، سواء تعلق الأمر بأماكنه، باتجاهاته، أو طرقه، أو أساليبه: ففي غمرة المنشورات العلمية بقدر

---

(1) Cf. M. A. Schiltz, «Influence du choix des traitements statistiques sur les opérations élémentaires dans un dépouillement d'enquête: codage et sélection des variables», Communication, XII° Congrès mondial de Sociologie, Madrid, 1990.

(2) حول هذه النقطة أنظر مثلاً ميتير K. V. Meter, Sociologie de la criminalité d'affaires: deux méthodes différentes, deux représentations sociales différentes, Bulletin de méthodologie sociologique, n° 1, 1983, p. 3 - 18 et Structure des données et stabilité des résultats, Bulletin de Méthodologie sociologique n° 4, 1984, p. 41 - 57.

ما يمكن للقارىء أن يكتشف تقارير «تقليديّة» لتحقيق ينظم معلومات عن مجموعات معنية في جداول إحصائيةٍ يمكنه أن يجد ترابطاً لمعطيات كمية ونوعية حول نواة نظرية قوية وبناءات بديهيّة تهدف إلى ضبط تصرف فاعلين معينين أو نصوصاً تعبيريّة تؤسس للتصويب الأدبي لجو اجتماعي على اعتبار أنه نوع من موضوع مجازي[1].

ثانياً ـ ميادين علم الاجتماع

سوف نقدم بكل طيبة خاطر أطروحة أن الشكل الخاص لبناء علم الاجتماع في هذه المرحلة التي لا يميزها أي اختراع برنامجي حقيقي جديد يكمن في تفرعه إلى حقول بحث متخصصة وجد منظمة.

إن تقسيم علم الاجتماع إلى فروع ليس شيئاً جديداً؛ فمع «السنة السوسيولوجيّة» Année Sociologique صنّفت الأعمال تحت عناوين مختلفة. ولكن الأمر يتعلق أساساً، كما يشهد على ذلك تطور التسميات، بتصنيفات منطقيّة تتوافق مع تقطيع نظري للدائرة الاجتماعيّة. إن ميادين البحث التي تتكون شيئاً فشيئاً ابتداء من الحرب العالميّة الثانية تحيل إلى مسار مختلف جداً؛ فهي تشكل نقاط اتصال بين اعتبارات نظرية وعلميّة وطلب اجتماعي منظم. إن تقطيع الميادين لا يحيل إلى إشكاليّة أولية، لكن يعبر عن بلورة وغالباً عن تأسيسيّة اللقاء بين طلب اجتماعي وعرض علمي من البحث. فما يمكنه أنِ يبدو في هذا النموذج الاقتصادي من العرض والطلب طارئاً وغير بانٍ، له على العكس خاصة البناء التدريجي لحقول بحث مستقل بعضها عن بعض ينتظم كل منها حول عقدة مشتركة في الاهتمامات والنتائج والنماذج والبرامج والصيغ؛ فحسب البلدان والأوضاع يكون اشتراك عالم الاجتماع في الحقل بشكل أنه يمكنه الانتماء قانونياً إلى واحدة من مؤسسات هذا

(1) يمكن أن نعود رغم اعتباطية مثل هذا الخيار وفي هدف توضيحي فقط إلى مؤلفات مثل مؤلفات بورديو La distinction, Paris, Ed, de Minuit, 1979, P. Bourdieu، وريمون بودون L'inéglité des chances, Paris, Armand Colin, 1973, R. Boudon، ومافيزولي L'ombre de Dionysos, Paris, méridiens - Anthropos, 1982, M. Maffesoli لقياس مثل هذه الاختلافات في الأساليب.

الحقل: هذه هي حالة مصالح الأبحاث السوسيولوجيّة المدربة حسب الحالات من قبل أجهزة مسؤولة عن الصحة أو التربية أو القضاء. . . .

هذه الميادين هي المكان لطريقة جديدة في العمل الاجتماعي: فهي لم تعد تنتج عن تقلبات خيارات المدرسة أو عن تحفيزات خارجيّة، على العكس يمكنها أن تبني وتختبر في الزمن نظريات تفسيريّة جزئية تغتني باستمرار من النتائج المتراكمة. وهكذا تسمح بإمكانية بروز تقاليد مميزة وإقامة علاقات مفضلة ما بين المجالات، وإنشاء بنكٍ للمعلومات الخاصة. إلاّ أنها تتميز بوضوح عن التقسيمات التي تميز سواها من القطاعات العلمية في ثلاث نقاط:

ـ سواء كان الاجتماع معتبراً ككل أو كمجموع فإن كل نظرية جزئيّة تتجه نحو الارتباط بنظرية أكثر عموميّة، وحتى إلى بنائها. في الوقت نفسه؛ فالتجديد النظري والبرنامجي جاء هكذا في معظم الأحيان خلال هذه الفترة من ميادين خاصة في علم الاجتماع وتعلق بنوع من حركة ذهاب وإياب من ميدان أو من مستوى إلى آخر: يمكن أن تقوم بهذا التحليل لنظرية التصنيف المتأتية من دراسات الانحراف، ونظرية النسخ المنبثقة من حقل علم اجتماع التربية، ونظرية العلاقات اللاشكليّة والشبكات المبنيّة داخل علم اجتماع التنظيمات. . . ففي كل مرة يمكن لهذه النظريات أن تشكل تطبيقاً أو تعديلاً لأحد البرامج التأسيسيّة الكبرى في علم الاجتماع.

ـ هذه اللعبة من التأثيرات أو بالأحرى من النقل بين الميادين من جهة، وبين المستوى الخاص الذي تعنيه ومستوى المقاربات الكبرى لعلم الاجتماع العام من جهة ثانية يولد السمة الثانية وهي: أن الميادين هي في الوقت نفسه أماكن وحدة وصراع. الوحدة تأتي غالباً من الخارج ـ من الشركاء، من الإطار المشترك للعمل الذي يحددونه ومن الموارد التي يأتون بها ـ بينما يرتبط الصراع في معظم الأحيان بالانقسامات الداخلية: تكون منافسات مؤسسية، عندما يعمل علماء اجتماع ينتمون إلى أجهزة مختلفة في الميدان نفسه، وتكون انتماءات نظرية وإپستمولوجيّة عندما تلتقي في المجال نفسه عدة مدارس سوسيولوجيّة؛ فعلم اجتماع التربية مثلاً شهد مواجهات من داخله بين النظريات العائدة إلى البنياوية ـ الوظيفيّة، أو إلى البنيانيّة

الوراثيّة، أو إلى الطريقة الفردية أو إلى التفاعليّة الرمزيّة أو إلى الطرائقيّة الاتنولوجيّة[1] . . .

ـ تلعب المكونات القومية والدولية أخيراً دوراً هاماً جداً في تكوين الميادين. إن نشوء منظمتين دوليتين كبيرتين بعد الحرب هما: الجمعية الدولية لعلم الاجتماع والجمعية الدولية لعلماء الاجتماع للغة الفرنسية[2]، اللتان تدعوان إلى مؤتمرات منتظمة وتنظمان التبادلات العلميّة المنهجية، لعب دوراً حاسماً في تكوين بنية الميادين. فنشأت شبكات دولية وتبنَّت في ظل كل منظمة أسلوباً في العمل والنشر المشترك. ففي المؤتمر العالمي الثاني عشر لعلم الاجتماع في مدريد احتمعت 42 لجنة بحث في 6 إلى 8 دورات انعقاد لكل منها وانتخبت أجهزتها الإدارية للسنوات الأربع التالية. ولكن وفي الوقت نفسه هذا التدويل لا يمكنه أن يخفي التردد النسبي في تنظيم حدود الميادين. فحسب المؤسسة والإطار، تتدخل عوامل مختلفة محققة تجميعات أو انشقاقات خاصة: فداخل المنظمات الدولية يمكن أن تتعايش لجان بحث وجماعات عمل متقاربة من حيث الموضوع، ولكن متباعدة من حيث شبكات الانتماء والستراتيجيّات المؤسسيّة وجماعات بكاملها يمكنها أن تبقى خارج هذه اللجان وأن تشكل نظام علاقات مبني على معايير مختلفة، كاللغة أو الانتماء إلى تيار منظم أو بكل بساطة الإطار القومي للعمل. ففي المؤلفات التوليفيّة والكتب (Text books) أن المقتضيات التوجيهيّة والانسجامات العلمية والانتماءات الأكاديميّة ووزن المرجعيات القومية تساهم في إنتاج «بطاقات» غير متطابقة لمشهد نظري واحد.

---

(1) Cf. J. M. Berthelot, Réflexions sur les théories de la scolarisation, Revue française de Sociologie, vol. XXIII, n°4, 1982, p. 585 - 604; J. C. Forquin, La «Nouvelle sociologie de l'éducation» en Grande - Bretagne Revue française de Pédagogie, n°63, 1983, p. 61 - 69; A. Van Haecht, L'école à l'épreuve de la sociologie, Bruxelles, Des Boeck, 1990.

(2) تأسست الجمعية الدولية لعلم الاجتماع عام 1949 تحت رعاية الأونيسكو. الأعضاء المؤسسون هم مختلف الجمعيات الدولية لعلم الاجتماع. الجمعية الدولية لعلماء الاجتماع باللغة الفرنسية، تأسست عام 1958 في بروكسل بمبادرة من جورج غورفيتش G. Gurvitch وهنري جان H. Janne. وهي لا تعرف إلاّ أعضاء أفراد وتحدد استخدام اللغة الفرنسية كلغة عمل.

ثالثاً ـ عقبات البرامج وتشكيكات جديدة

شهدت الفترة الممتدة من أواسط الخمسينات حتى نهاية الثمانينات رغم قصرها تتابع مقاربات مهيمنة مختلفة: لقد احتلت أولاً البنيانيّة الوظيفيّة والبنيانيّة مقدمة المسرح؛ ثم تميزت نهاية الستينات بعودة الاهتمام بماركسيّة متجددة، تندرج في خط مدرسة فرانكفورت أو تعمل على إعادة قراءة بنيانيّة للنص الماركسي(1). وشهد العقد التالي عودة المنظورات الظواهرية والتفاعليّة ونمو الاهتمام بالطرائقيّة الاتنولوجيّة. وأخيراً بقدر ما تتميز المرحلة الراهنة بمحاولات تجاوز التعارضات السابقة تتميز أيضاً ببروز إشكاليّة ما بعد الحداثة وتعيد إلى الأنظار كل المكتسبات العلمية لعلم الاجتماع.

إن تحليلاً من هذا النوع حامياً هو بلا شك عرضة للنقاش واعتباطي بصورة جزئيّة. فالأمر يتعلق من جهة أخرى بالاتجاهات التي تعدلها الأطر القوميّة بقوة: فالجدال الألماني بين مدرسة فرانكفورت والوضعية استمر بواسطة مفكرين مثل جورجان هابرماس Jürjen Habermas وهانس البير Hans Albert؛ فمفكرون مثل جورج بالنديه Georges Balandier، ريمون بودون Raymond Boudon وپيار بورديو Pierre Bourdieu وميشال غروزييه Michel Grozier وآلان تورين Alain Touraine «يعيدون صناعة» المقاربات الكلاسيكيّة ويهيمنون على التفكير السوسيولوجي في فرنسا خلال كل الفترة(2). في الولايات المتحدة عصر «ما بعد

(1) يتعلق الأمر في الحالة الأولى ليس فقط بالشهرة المتأخرة لهربرت ماركوز Herbert Marcuse، ولكن أيضاً بعودة الاهتمام بالماركسية النمساوية والشاب لوكاكس Lukacs الذي تطور في فرنسا خاصة في بداية الستينات. إن إعادة القراءة البنيانية لماركس، من جهة أخرى والتي قادها لويس ألتوسير Louis Althusser وطلابه في دار المعلمين العليا ثم تابعها موريس غودوليه Maurice Godelier ونيكوس بولنتزاس Nicos Poulantzas (Pour Marx, Paris, Maspéro, 1965; Lire le capital, Paris, Maspéro, 1965) كان لها أثر هائل: جيفراي ألكسندر Jeaffrey Alexander أشار إلى أن شعبة ماركسية فتحت عندها في الجمعية الأميركية لعلم الاجتماع وضمت بسرعة عدداً كبيراً من الأعضاء (The new théoretical Movememt, N. J. Smelser (ed.), Handbook of sociology, Londres, Sage Publications, 1988, chap, 2 p. 77 - 101).

(2) من أجل محاولة توليفية تتعلق بعلم الاجتماع الفرنسي خلال هذه الفترة أنظر پيار أنسار Pierre Ansart, Les sociologies contemporaines, Paris, Seuil - Points, 1990.

بارسونز» يشهد سير لعبة تأرجحيّة بين ما بعد الوظيفيّة من جهة ومختلف تيارات التفاعليّة الرمزيّة، والطرائقيّة الاتنولوجيّة وعلم الاجتماع الظواهري من جهة ثانية في جدال، بسبب المستويات المختلفة المفضلة في التحليل من جهة وأخرى، يترجم غالباً في مواجهة بين ماكرو وميكرو علم الاجتماع[1]. وإذا لم يخلق هذا حقيقة بالمعنى الذي تكلمنا عنه سابقاً مقاربات كبرى جديدة، فعلى العكس نلاحظ نوعاً من التنقية للخطابات من السخافات الإيديولوجيّة أو البلاغيّة كما نلاحظ محاولات مختلفة لتجاوز المواجهات السابقة أو للربط الداخلي بينها.

ثلاثة موضوعات قويّة تحكم هذه الفترة:

ـ الأولى هي التعارض بين النظام والتغير الاجتماعي. فهي بقدر ما تشكل مسألة نظرية ـ ما هي أدوات التنظيم والمراقبة الاجتماعيّة؟ ما هي عوامل التغير وصيرورة المجتمعات؟ ـ تشكل مسألة إيستمولوجيّة، وحتى فلسفيّة: هل يجب أن نفهم الحركة من خلال النظام، أو على العكس النظام من خلال الفوضى؟ فعلى هذه المعضلة التي تعود جذورها إلى الفلسفة اليونانيّة القديمة لا يمكن لعلم الاجتماع أن يقدم جواباً نهائياً. على العكس يمكنه أن يختبر الملاءمة الأكثر أو الأقل لوضعية ما بالنسبة لغيرها في لحظة معينة. إن الأولويّة المعطاة لدراسة النظام الاجتماعي وتوازناته كأساس للتغيير حكمت المقاربات ذات الطروحات البنيويّة حتى الستينات إذ لم تجد من بديل إلاّ في المرجعيّة الماركسيّة. وعلى العكس نشأت تدريجاً طوال الفترة الراهنة اتجاهات في البحث تبين النظام على أنه لحظة في الدينامية الأصلية التي يجب بناء منطقها. هذا المنظور يجتاز كل أعمال جورج بالنديي G. Balandier ويتم التعبير عنه ليس فقط في الاستخدام الطرائقي للمجتمعات التقليديّة «كمُحلِّلة» للمجتمعات الحديثة بل أيضاً في بناء مفهوم الخلل كوسيلة مركزيّة لفهم هذه المجتمعات نفسها[2] إن علم اجتماع الفعل لآلان تورين Alain Touraine يشكل توضيحاً آخر لهذا المنظور: فطوال فترة تفكير جرت من

---

(1) انظر مثلاً: تحليل هذه المرحلة التي عرضها جيفراي ألكسندر في كتابه: «The new theoretical Mouvement», art. cit.

(2) G. Balandier, Le détour, Paris, Fayard, 1985; Le désordre, Paris Fayard, 1988.

خلال دراسة الحركات الاجتماعيّة التي ميزت هذه الفترة، قامت نظرية الفعل، التي ترفض مفهوم المجتمع لصالح مفهوم التاريخيّة: «المجتمعات» التي يمكن فهمها تجريبياً لا تحيل إلى نظام كامن (المجتمع) قد يعلمنا عنها بل إلى صراع يتواجه به الفاعلون الاجتماعيون في تعريف وإدارة هذه التاريخيّة، أي في إنتاج المجتمع كحقل اجتماعي منظم[1]. وعلى مستوى آخر إن التعارضات نظام/فوضى، استقرار/صيرورة، تشمل خيارات طرائقيّة متعددة وحتى برنامجيّة: فالمنظور التفاعلي لإيرفنغ غوفمان Erving Goffman أو القطع الطرائقي الاتنولوجي لهارولد غرفينكل Harold Garfinkel يعالجان أيضاً بناء إشكاليّة النظام السائد في العلاقات والتفاعلات اليوميّة. إن إعادة النظر في أولوية النظام الكامن والتساؤل حول بناء التوازنات الجزئيّة يدفعان إلى تجميعات للمعطيات غير عرضية بل طولية تدخل بصورة منهجية البعد التاريخي والزمني في الدراسات الملموسة.

ـ إن بناء إشكالية مفهوم النظام يقع فعلاً عند تَمَفْصُل محورين: محور النظام والتاريخ من جهة ومحور النظام والفعل من جهة ثانية أو بعبارات أخرى البنى والفاعلون. فالمحور الثاني هذا يشكل الطرح الثاني الكبير الذي من خلال استمرارية التعارضات الكبيرة لبرامج علم الاجتماع منذ نشأته، يخترق هذه المرحلة. غير أن الجديد يكمن ليس في محاولة نكران كل صوابية للمقاربة المعارضة بل على العكس في محاولة دمجها أو إجراء روابط جديدة. إن إنشاء بعض الميادين الخاصة كعلم اجتماع المنظمات، وامتداد التفكير السوسيولوجي إلى ظواهر كانت حتى اليوم معتبرة ثانوية والتي وضعتها الأحداث في الواجهة مثل الجسد والعلاقة بالجسد ساهما كثيراً في بروز مثل هذا الهم. فعلم اجتماع المنظمات يفرض وضع مفاهيم ليس فقط للبنى بل أيضاً للفاعلين ضمن إشكاليّة مظهراً حدود البرامج التنظيميّة «الشكليّة» وأهمية الستراتيجيات لمختلف الفاعلين[2]. فالتصرفات الجسدية وعادات اللبس والممارسات الغذائيّة وألعاب التظاهر تشكل

---

(1) Cf. A. Touraine, Sociologie de l'action, Paris, Le seuil, 1965; production de la société, Paris, Le seuil, 1973; Le retour de l'acteur, Paris, Fayard, 1984.

(2) Voir M. Crozier et E. Friedberg, L'acteur et le système, Paris, Le seuil, 1977; P. Bernoux, La sociologie des organisations, Paris, Le seuil - points, 1985.

مادة تزداد أهمية بقدر ما تدور فيها طريقة جديدة لعلاقة الفرد بالمجتمع مكونة في الوقت نفسه من الخضوع للموضة والقوانين ومن التأكيد للذات الفرديّة[1]. فالفاعلون والبنى يمكن إذن تصورهما حسب أشكال اتصالها. غير أن هذا المنظور الجديد يمكنه أن يتضاعف وبالأحرى يتعدد وفق القطب الذي في التحليل النهائي يظل جاسماً. وهكذا خلال هذه الفترة تتعارض وتتمايز مقاربات مثل مقاربات ريمون بودون Raymond Boudon پيار بورديو Pierre Bourdieu. فالأول يرافع من أجل طرائقيّة فرديّة تختبر بانطلاقها من إعادة بناء تصرف الفاعلين داخل نظام معطى النتائج المتوقعة لتصرفهم المعقلن وتتوقع هكذا التحولات البنيوية الناتجة عن تجمع هذه النتائج وفق آلية الأثر الخال بالنظام[2]، والثاني: يدخل بواسطة مفهوم العادة عاملاً أساسياً للاجتماع يفسر استيعاب الفاعل لمحددات أساسية لوضعيته الاجتماعية تحت أشكال من تخيلات للفعل والتفكير تؤيّد تصرفاته كتغير فردي للطريقة نفسها أو السلالة المشتركة[3]. ونجد محاولات شبيهة عند مؤلفين آخرين تحت شعارات أخرى أمثال أنطوني غيدنس Antony Giddens أو جفري ألكسندر[4] Jeffrey C. Alexander.

ـ أخيراً تأثر علم الاجتماع منذ عدة سنوات بتيار من التفكر المنبثق من الفلسفة والانتروپولوجيا وعلم الجماليات. إنها حركة ثقافية بموضوعها واتساعها تطلق اسم ما بعد الحداثة على حالة المجتمعات المتطورة وما بعد الحداثوية على الثقافة التي تنتجها. إن هذه الحركة التي تُسجِّل في الوقت نفسه نهاية الخطابات الكبرى الفائضة وانفجار أشكال التعبير المتأثرة أكثر فأكثر بصناعات الصورة

---

(1) Voir J. M. Berthelot et al. Les sociologies et le corps, Current sociology, vol. 33, n°2, 1985.

(2) R. Boudon, Effets prevers et ordre social, Paris, PUF, 1977; La logique du social, Paris, Hachette, 1979; La place du désordre, Paris, PUF, 1984.

(3) P. Bourdieu, La distinction, Paris, Ed, de Minuit, 1979; Le sens pratique, Paris, Ed. de Minuit, 1980; Choses dites, Paris, Ed. de minuit, 1987.

(4) يضع ج. آلكسندر J. Alexander، وفق هذا المنظور، مجلة لمختلف المؤلفين المعاصرين (cf. «The new théoretical Mouvement» art, int) كما أن أ. غيدنس A. Giddens يضع نفسه في قلب هذه الإشكالية في كتابه، La constitution de la société, 1984, Trad. Paris, PUF, 1987.

والاتصال تحدث داخل علم الاجتماع قطعاً مع القواعد التقليديّة للعلماوية التي كانت ما تزال تخضع لها مختلف البرامج السابقة. إنها تدفع التعارض بين الوضعية وعلم اجتماع الفهم إلى أقصاه من خلال إعادة النظر الجذرية في العقلانيّة نفسها مبشرة بنسبوية ذات أسلوب باروكي (Baroque) يمكنه أن يبدو كنموذج مثالي[1].

إن هذا الخط في التفكير الذي يهدم الحدود بين المجالات وأكثر من ذلك بين الخطابات العلمية والجمالية يخلق تواتراً جديداً: إذ بقدر ما يطرح مشكلة حدود الممارسة السوسيولوجيّة يطرح وبشكل أعمق مشكلة وضع العقلانيّة. فتواجه بعد الحداثوية ردات فعل عميقة من الرفض، وفي الوقت نفسه محاولات من الإجابات النظرية، المبنية على تعميق للعقلانيّة: فجورجن هابرماس Jürjen Habermas، وريث مدرسة فرانكفورت الذي لم يفصل أبداً بين علم الاجتماع والحركة الثقافية ولم يمارس كذلك عقلانية هادئة، هو بلا شك زعيم هذا المشروع «الحداثي ـ الجديد» لتعميق وانفتاح العقلانية[2].

إن الروابط بين هذه الموضوعات الثلاثة الكبرى تظهر واضحة بشكل كافٍ: فإشكاليّة ما بعد الحداثة تطرح من جديد وبطريقة أخرى مسائل النظام والتغير بقدر ما تطرح مسائل الفاعلين والبنى. وبالطريقة ذاتها ينضم إلى هذه العلاقات «الأفقيّة» العديد من العلاقات «العموديّة» من مستريات مختلفة تقوم من خلالها في ميدان معين وحول موضوع محدد أشكال من البحث والتنظير تشكل صدى لهذه أو لتلك من الموضوعات وتعيد صياغتها على نار التحقيق الملموس.

---

(1) إن علماء الاجتماع الفرنسيين الأكثر تمثيلاً لهذا التيار هم: ج. بودريار J. Baudrillard (مثلا: La transparence du mal, Paris, Galilée, 1990)، M. Maffesoli La connaissance ordinaire, Paris, Méridiens, 1985; Au creux des apparences, Paris, plon, 1990.

من أجل تفكير أكثر «ابتعاداً» حول هذه العلاقات مع علم الاجتماع انظر ز. بومان Z. Bauman, Sociology and postmodernity, The sociological Review, Vol, 36, n° 4, 1988, p. 790 - 813.

(2) J. Habermas. La modernité. un projet inachevé, 1980, trad. in Critique, n°413, 1981, p. 950 - 967; Le discours philosophique de la modernité, 1985, trad. Paris, Ed. Gallimard, 1988.

خاتمة

هل هناك علم اجتماع واحد أو عدة علوم اجتماع؟ إن إلقاء نظرة سريعة على مجال المعرفة في علم الاجتماع كما أن خوفاً ملازماً لكل اختزال وحدوي يدعوان إلى التعدد. إلاّ أن هذا التعدد يُستخدم في معظم الأحيان للسهولة أو دبلوماسياً ويميل إلى عدم الاعتراف بحدود: فكل تفريع لمجال البحث وكل ترسب للحركات التقنية وكل «انتماء ضئيل» نظري أو برنامجي يمكنها، لمجرد نشوء شبكة عمل ضمنها، أن تتشكل في جمهورية مستقلة.

لهذا السبب احتقر منظِّروا علوم الطبيعة طويلاً وفضحوا المعرفة الهشة، المغلوطة وغير المتخلصة من سخافات لغوية أن التي تسللت بواسطتها التعارضات الميتافيزيكية والصراعات الإيديولوجيّة. غير أن تعميق التفكير والتحليل الحديثين المخصصين لعلوم الطبيعة يوحي بأن هذه العلوم ليست بمنأى عن صعوبات شبيهة. غير أنها كانت أقل جلاء لتخفيها بسهولة أكبر وراء جهاز شكلي وأدواتي مشترك. لقد دعا توماس كون Thomas kuhn بإدخاله فكرة أن علوم الطبيعة عرفت تتابعاً «لنماذج مثالية» أي لطرق عمل وتصور للعلم، إلى التفكير «بالقوالب العلمية» المكونة لهذه النماذج.

فإذا كان مجال علم الاجتماع موزَّعاً على عدد لا يحصى من القبائل إلاّ أن هذه قد تنتمي مهما بلغت حصتها من هذا المجال، إلى الأمة ذاتها. فالنظرة التي كان علم الاجتماع يلقيها على نفسه تغيرت على هذا النحو طوال فترة بنائه: فبينما ظل طويلاً مترسخاً في شروط تأسيسه نفسها واتجه علم الاجتماع إلى معارضة النظرة التوحيديّة (علم الاجتماع هو علم كغيره من العلوم ولا يمكنه إلاّ أن يكون واحداً) بتصور ثنائي (فعلم الاجتماع هو علم معالجة متميز حكماً من علم التفسير)، فهو قد توجه شيئاً فشيئاً خلال الفترة الأخيرة نحو دمج للتعددية: فالمنطقة المشتركة هي إذن القالب العلمي المشترك، هذا الخزان للنظريات والبرامج

والأدوات والصيغ الذي لا ندخل إليه أبداً إلاّ بوساطة ملموسة بانتماء خاص والذي يشكل مع ذلك الأفق المشترك لكل علماء الاجتماع[1].

إن ميراث علم الاجتماع ليس غرفة مهملات للنظريات والطرق. إنه يتألف، كما حاولنا أن نبرهن من خلال هذا الكتاب، من طرق مقاربات و«برامج» بحث، تستكشف الإمكانات المتعاقبة والمتوافقة في الوقت نفسه لإدراك الاجتماع. إن التطور والتمفصل التنازعي لبعض هذه البدائل الكبرى في أبعادها الشمولية والعملية في الوقت نفسه هما اللذان يشكلان خصوصية القالب العلمي لعلم الاجتماع. فعلى هذا القالب إذن، إذا استجوب من وجهة النظر هذه، أن يسلّم مفتاح تعدديته. فعلم الاجتماع الحديث يجيب على هذا السؤال الأساسي والجديد في الوقت نفسه بطريقة تعدّدية: مؤكداً على الوحدة الجدليّة بين الموضوعانيّة والذاتية معمقاً الخيار الثنائي، مستجوباً أخيراً الدعامة المنطقيّة والمعرفيّة لتعددية أنماط الفهم التي بواسطتها يبني علم الاجتماع «إدراك موضوعه»[2].

---

(1) Cf. par exemple, T. Bottomore et R. Nisbet, Introduction à A history of sociological analysis, op. cit., ou W. L. Wallance, Toward a Disciplinary Matrix in Sociology, in N. J. Smelser (ed)., Hanbook of sociology, op. cit.

(2) الوضعية الأولى وضحها بورديو P. Bourdieu, Le sens pratique, op. cit, أو ج. هابرماس Le discours philosophique de la modernité op. cit. والثانية وضحها ر. بودون R. Boudon, Individualisme ou holisme: un débat méthodologique fondamental in نقاش طرائقي أساسي H. Mendras et M. Verret, Les champs de la sociologie françaises, op. cit: والثالثة: وضحها ج. م برتلو J. M. Berthelot, L'intelligence du social, op. cit.

فهرس

عويدات للنشر والطباعة 1999/1014

JEAN - MICHEL BERTHELOT

LA CONSTRUCTION DE LA SOCIOLOGIE

Traduction arabe

de

Dr. Georgette EL - HADDAD

EDITIONS OUEIDAT

Beyrouth - Liban

بناء علم الاجتماع

يتميز هذا الكتاب بأنه يقدم بطريقة واضحة ومبسطة تاريخ بناء علم الاجتماع. ليس كعرض لأفكار المؤسسين وهو منهج أصبح قديماً، أو كتاريخ لمفاهيم وتصورات لمقاربة الموضوع الاجتماعي معزولة عن المرجع الفكري أو المكاني، بل يطرح المؤلف في جدلية فريدة وخلافاً لكل الأسلوبيين المنهج بصورة شبه كاملة استعراضاً لهذا العلم في العصر الحديث متوقفاً على المحطات الكبرى والصغرى التي تشكل إلى حد كبير التاريخ الاجتماعي الذي على أساسه بنيت النظريات والمواقف الخاصة به، وذلك من خلال التيارات الفكرية والفلسفية العامة أو من خلال علماء اجتماع ومفكرين صنعوا هذا العلم نظرياً وعملياً. ومن هنا يمكن القول إنه بقدر ما يتوجه هذا الكتاب إلى الطلاب والباحثين والدارسين للعلوم الاجتماعية، يتوجه أيضاً إلى كل المهتمين بالفكر والثقافة.

ولا يسعنا أخيراً إلا أن نتمنى أن تكون الإشارة السريعة في هذا الكتاب إلى تيارات علم الاجتماع وعموماً علماء اجتماع في دول العالم الثالث حافزاً لدراسة مشابهة متكاملة حول مسار هذا العلم في هذه الدول تطلعنا على القضايا الكبرى التي طرحت نفسها عليه وشكلت مقاربتها خطوة في طريق تطور البحث العلمي والفكر الموضوعي في هذه البلدان وعلى الأخص البلدان العربية.

زدني علماً

232

EDITIONS OUEIDAT
B.P. 628 Beyrouth